الفصل الثالث

الوزراء والحياة الاجتماعية

- الوزراء والأحباس
- الوزراء والحسبة
- الوزراء والعامة
- علاقة الوزراء بالمتصوفة
- الوزراء والآفات الاجتماعية
- الوزراء والأشراف والاحتفالات والأعياد:

obeikandl.com

obeikandl.com

الوزراء والأحباس

تنوعت الأحباس[١] في البلاد المغربية شأنها كشأن الأحباس في المشرق، فكانت هناك أحباس المساجد والمدارس والفقراء والمساكين واليتامى والزراري والزوجات، ويشمل أيضًا الأحباس على الأضرحة والمقابر والزوايا والأربطة[٢] مما جعل لها دورًا كبيرًا في حل الكثير من المشاكل الاجتماعية، حيث وفرت الرعاية الاجتماعية للفقراء واليتامى والتخفيف من مآسيهم وتيسير سبل العيش والحياة الكريمة لهم، واتقاء مرارة الجوع، وتعمير البلاد الإسلامية، وتحقيق العدالة لاجتماعية في المجتمع الإسلامي عامةً والحفصي خاصة[٣].

وللتحبيس صيغ مختلفة، فتعد الصياغة الكتابية من أهمها وإلزامها لأنها

(١) الحبس والوقف واحد، والحبس بالضم ما وقف الجمع أحباس، وحبائس ويجمع الحبس على كل شيء وقفه صاحبه وقفًا محرمًا لا يباع ولا يوهب ولا يورث، هو لفظ اصطلاحي عند المالكية، واستعمل في المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، أما في المشرق الإسلامي أطلقوا عليه وقف، فيقال وقفت الدار للمسكين أو يقال حبست فرسا في سبيل الله، وكلا المعنيين واحد. راجع: البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٣١٦-٣١٩، كمال أبو مصطفى:- بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس، في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة؛ الإسكندرية (د-ت)، ص١٦١،١٦٠، كمال أبو مصطفى: الأحباس في الأندلس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة (١٠-١٥م)، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، ١٩٨٩م،، ص٨-٩؛ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله: الوقف في الفكر الإسلامي، فضالة للنشر، المغرب، ١٩٩٦،جـ١، ص٤١-٤٦.

(٢) كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب: ص٢٦-٢٧، رشا سالم: المرجع السابق ص٣١٤.برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٩٤.

(٣) محمد بن عبد العزيز عبد الله: المرجع السابق، ص١٧؛ كمال ابو مصطفى: جوانب، ص٢٦-٢٧؛ محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١، ص٣٦٠، برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٩٤.

هي التي توضح المقصود من الحبس وتحدده، ويجوز التحبيس بالإشارة مع حضور الشهود لمن عاقه مرض مهلك أو غيره، فإذًا لابد من مبدأ التصريح بالتحبيس واجب لمن لا عائق لديه وان حدث وتعارضت الشهادتان بشأن وقف، ادعي أحد ملكيته، وادعى آخر منازعته أنه وقف، فأنه يُحكم بصالح أعدل الشهادتين(١).

وتعددت الدوافع المفسرة لقيام عملية الأحباس، منها انتقال الحبس الخاص الى العام عند انقراض العقب، وكان ذلك أمرًا واردًا في ذلك المجتمع الذي كانت تعصف به الأزمات السياسية والطبيعية، فكانت تقضى على عائلات بأكملها(٢) وكان القاضي والخطيب هما صاحبا الحق في الاحتفاظ بادارة الأحباس، وكان القاضي يعقد مع ناظر الحبس من حين لآخر في محاسبات معينة حددت أشكالها من أجل النظر في أهم قضاياها(٣)

وكان نظام الأحباس معمولا به على نطاق واسع في أفريقية الحفصية، حيث كان بمدينة تونس مديرا رسمي للأحباس، فُكلِف بإدارة الأحباس

(١) ابراهيم حركات: النشاط الاقتصادي، ص٢٠٩-٢١٠، رشا سالم: المرجع السابق، ص٣١٤.

(٢) البرزلي: فتاوى: جـ٥، ص٥٧٦-٥٧٧.

(٣) كان يجلس القاضي والناظر والشهود من أجل المحاسبة في قضايا الأحباس، في وجود الشهود وتنسخ الحوالة كلها من أول رجوع الناظر الى أخر المحاسبة وتقابل وتحقق ويرجع على مشاهدية أوكراء أو ضيف أو فريق، وجميع مستفادات الحبس، حتى يغير ذلك كله نقطة واحدة ثم يقسم على المواضيع لكل حقه مع اخذ المرتبات، ومع قبض وغير ذلك من ريع الأحباس، ومن يفسد شيئًا لزمه غرمه، ومن يضيع شيئًا ويفسده فعليه غرامة. راجع الونشريسى: المعيار: جـ٧، ص٣٠٢.

العامة، جزئيًا وكليًا، مثل بيوت الصلاة والعقارات المختلفة التي كانت تستعمل مداخلها للقيام بالأعمال الخيرية، كما تدل عملية التنظيم والترتيب للأحباس في العهد الحفصي على مدى اهتمام السلاطين والوزراء بالأحباس العامة، أما الأحباس الخاصة فلم تخضع لتلك الرقابة الصارمة من قبل الادارة التي كانت لا تتدخل الا في صورة حصول خطأ واضح أو نزاع، وكان ذلك يتم عن طريق القضاه الذين كانت صلاحياتهم ممتدة للغاية في هذا الميدان[١] وازدهرت وتنوعت أحباس السلاطين الحفصيين و وزراؤهم على الأحباس الخاصة بالعقارات على طلاب المدارس وأصحاب الزوايا وغيرهم، وذلك من أجل كسب هذه الشرائح الاجتماعية[٢].

الأحباس على البيمارستانات

لقد كانت الرعاية الطبية في مختلف العهود الإسلامية مصحوبة بإقامة مؤسسات لمداواة المرضى وعلاجهم[٣] وفي فترات قوة الدولة وسلاطينها ازدهرت الأحباس على البيمارستانات، حيث أقيم بتونس مارستان بناحية سيدي محرز لا يزال موجودا حتى يومنا هذا، وأحدث السلطان أبو فارس عبد العزيز الحفصي و وزراؤه بيمارستان بتونس[*] من أجل الضعاف والغرباء

(١) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٩٦.

(٢) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١، ص٣٦٠.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله: الوقف في الفكر الإسلامي، جـ١، ص١٤٥.

(*) كان مكان هذا المارستان مستشفى قديم يسمى الدمنة، والدمنة هي المستشفى أو المارستان في الاصطلاح التونسي القديم، وهي دار معدة لايواء المصابين بالأمراض المعضلة التي يحول الأمر علاجها والتي يغشى منها سريان العدوى، راجع: حسن حسني عبد الوهاب: ورقات: جـ٢،ص٤٦-٤٧.

وذوي العاهات من المسلمين، وحبس على ذلك البيمارستان أحباسًا كثيرة تقوم به ومنها ما عينه لأهل الأندلس اعانة لهم على العدو في كل عام[١] مما أدى إلى انتعاش هذا البيمارستان في العهد الحفصي. مما انعكس على اهتمام السلاطين والوزراء الحفصيين بالطب والأطباء حيث حظى الأطباء بعناية خاصة، وكانوا دائماً قريبين من السلطان والوزراء، وكانوا جميعهم من المسلمين، ومن أشهر الأطباء الحفصيين أبو الحسن الروازي[٢] ومحمد بن أندارس[٣] وكانا في عهد السلطان المستنصر الحفصي[٤] بل كان اهتمام السلاطين والوزراء الحفصيين بالطب والأطباء يفوق حدود الدولة الحفصية حيث أرسل السلطان ابن اللحياني الطبيب محمد بن عيشون سنة ١٣١١م سفيرًا لدى ملك أراجون خايم الثاني[٥] وكان للسلطان أبى العباس أحمد و وزراؤه اهتمام كبير بالمورستانات والأطباء بسبب وجود الطبيب ذائع الصيت المشهور ابن الزرزار الذى كان يتمتع بتقدير واهتمام كبير[٦]، فانعكس ذلك على الحالة الصحية للبلاد في فترات القوة والازدهار.

---

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٦؛ عبد العزيز بن عبد الله: الوقف، ص١٥٠؛ حسن حسن عبد الوهاب: ورقات، جـ٢، ص٥٠. الهادي العامري: المرجع السابق، ص١٧٦.

(٢) الغبرينى (أبو العباس أحمد بن محمد الغبرينى): عنوان الدرية فيمن عرف من علم اء في المائة السابعة ببجاية، ت: رابح دينار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص١٠٦.

(٣) المصدر السابق: ص٤٥-٤٦.

(٤). برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص٣٨٩.

(٥) برنشفيك: المرجع السابق ص

(٥) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٣٨٩

(٦) ابن القنفذ: الفارسية، ص

وعندما ضعفت الدولة في أطوار الانحلال والتدهور وسيطرة الوزراء عليالبلاد و السلطة و النفوذ وكان دافعهم الأساسي هو السيطرة على الأموال والثراء مما عرض المؤسسات الصحية والأطباء الى الاهمال، وتعرضت الأحباس الى التدهور والانهيار والتدمير بسبب الصراعات السياسية والحروب المستمرة لوزراء الدولة ومنافسيهم بل اتجه الوزراء الحفصيون المستبدون والملوك الضعاف الى التسلف من أموال الأحباس من أجل الانفاق على حروبهم ومشاكلهم(١) واستمر الوزراء المستبدون والسلاطين الضعاف في الاستيلاء على جباية الأحباس بسبب ما وصلت اليه الدولة من فقر وظلم وحياة يائسة(٢) مما جعل الناس يعبرون عن غضبهم تجاه السلطة الحفصية وتجرأوا على الأحباس واعتدوا عليها واستولوا على ما فيها؛ مما أصابها بالخراب والدمار(٣) كما فرط ناظر الأحباس نفسه في الحبس، وكذلك مساعدوه لم يختلفوا عنه(٤) مما أصابها بالتدهور والفساد والانحطاط(٥) وأثر

(١) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص٢٩٨-٢٩٩؛ كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، ص٣٣، هدى ع١ مرى: المرجع السابق، ص١٧٨.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص١٨٥.

(٣) البرزلي: فتاوى: جـ٥، ص٣٤٣؛ الونشريسي: المعيار، جـ٧،ص١٥١.

(٤) كثيرًا ما قام المحبسون على جهات معينة، بوضع شروط محكمة من أجل حماية أحباسهم من الانهيار والتسلط والاستيلاء عليها من قبل الوزراء المستبدين في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين، راجع: الونشريسي: المعيار: جـ٧، ص٤٣، ٤٤؛ رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٢٣.

(٥) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص٣٣٥، محمد حسن، المدينةوالبادية: جـ١، ص٣٦٤؛ الونشريسي: المعيار، جـ٧، ١١٣، ص٢٧٥، ٢٩٤، كمال ابو مصطفى: الأحباس والأندلس: ص٥٦-٥٧، حسين سيد عبد الله مراد: الأوقات مصدرًا لدراسة لميجتمع فاس في العصر

على الحياة الصحية للمرضى والمجذومين والفقراء.

الأحباس على المساجد

كانت الأحباس العقارية على المساجد كبيرة جدًا في الدولة الحفصية، من أجل تغطية مصاريف هذه المساجد والموظفين وأجرتهم ووقودهم، فإلى جانب تبرع الخواص بالعقارات لفائدة هذه المنشآت، فان السلاطين الأقوياء والوزراء الحفصيين أكثروا من هذه الأحباس من أجل أهداف سياسية واجتماعية وكذلك بالنسبة الى الأحباس المبهمة أو أحباس القرى اذا جهلت مصارفها، فكان صاحب الحبس الكبير بتونس يتولى جمعها وصرفها على صيانة المساجد وترميمها(١).

وفي عهد قوة الدولة والسلاطين العظماء تنوعت الأحباس وتخصصت على جانب معين من أمور المسجد، فهناك أحباس معينة لبناء المساجد، وأحباس لفرش المساجد، أحباس للشمع الذي يستخدم في اضاءة المساجد من أجل الدروس الدينية وغيرها(٢) واستمرت الأحباس على المساجد في فترات القوة والازدهار على جميع مساجد الدولة دون الاقتصار على مسجد بعينه مما انعكس بالايجاب على مساجد الدولة الحفصية(٣).

المريني، الزهراء، كمبيو سنتر للنشر، ٢٠٠٢،ص٧٠.

(١) الونشريسى: المعيار: جـ٧، ص٣٣٥، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١، ص٣٦٤، إبراهيم العبيدي التوزي: تاريخ التربية يتمونس، الشركة التونسية للتوزيع، (د.ت)، جـ١، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) الونشريسى: المعيار: جـ٧، ص١٨٤، رشا سالم: المرجع السابق، ص٣١٥

(٣) الونشريسى: المعيار: جـ٧،ص١٨٤-١٨٥.

مما ترتب على ذلك ارتفاع مداخيل وموارد بعض المساجد الكبيرة أكثر من مصاريفها، فكان جامع الزيتونة مثالا لذلك، حيث تعددت الأحباس العقارية الموقوفة عليه، فكان يخصص جزء من هذه الموارد لأجرة الموظفين وتوفير متطلبات المسجد من جميع المرافق الخاصة به[١] حيث تعرضت النوازل للحديث عن شرعية المسالفة بين المساجد، وذلك عن طريق التسلف من المسجد الذي ليس في حاجة لأي اصلاحات أو ترميمات من أجل اصلاح مسجد زرء آخر أو ترميمه في حالة وجود فائض به[٢] وقام السلاطين العظماء و زراؤهم بانشاء المساجد وجعل الأحباس عليها مثل جامع القصبة فى تونس في عهد السلطان ابى زكرياء الحفصي[٣] ومسجد الزيتونة حيث وسع الأحباس على هذا المسجد و العاملين عليه السلطان الحفصي أبو زكرياء أحمد و وزراؤه[٤] ومن ثم اهتم وزراء السلاطين الأقوياء بإقامة الأحباس على المساجد، فكثرت تلك الأحباس على الأئمة و المؤذنين والقومة بالمساجد[٥].

على العكس من فترات نفوذ الوزراء حيث ازدادت الفتن والحروب الداخلية والخارجية، فتعرضت هذه الأحباس للتخريب وأحيانا أخرى

(١) البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٣٩٠-٣٩١؛ الونشريسى: المعيار: جـ٧، ص١٨٤.

(٢) الونشريسى: المعيار: جـ٧، ص٤٤-٤٥.

(٣) العمري: وصف أفريقيا، ص٢٢٧، محمد عبد الرحيم غنيمة: الجامعات الاسلامية، ص٢٤-٢٥.

(٤) الزركشي: لمصدر السابق: ص٥١، العمري: وصف أفريقيا، ص٢٥، التنجاني: الرحلة،ص٢٧٤-٢٧٥، ابن القنفذ: الفارسية، ص١٠٦.

(٥) كمال ابو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، ص٢٨؛ رشا سالم: المرجع السابق، ص٣١٥-٣١٦.

كانت تُدمر ما أُقفت عليه هذه الأحباس، كثيرًا ما أشارت النوازل وذكرت خراب مساجد، و قرى بأكملها هجرة سكانها منها، فهل يجوز الأخذ من أحباس مسجد ليعتمر مسجد آخر، فظهرت نوازل تؤيد وتجوز نقل أحباس مسجد الى مسجد آخر من أجل عمارته[١] وأثرت تلك الفتن والثورات والصراعات في فترات نفوذ الوزراء واطوار الضعف التي ألمت بالدولة الحفصية على تراجع غلات الأحباس بسلب على مرتبات الموظفين والعاملين، فيلجأ المتولي للحبس الى اجراءات تقشفيه عدة، مثل الاستغناء عن بعض الموظفين والعاملين أو التنقيص من أجورهم كتحديد عدد القناديل والشموع بالمساجد[٢] وتهدمت أيضًا المساجد وخربت في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلطان، ولم يبق منها سوى الأعمدة[٣].

وتركت أراضي أحبست على المساجد وهجرت لسنوات طويلة دون زرع أو غرس مما أثر على المساجد بسبب نقص العائد عليها من تلك الأحباس قبل أن تجدب وتهجر هذه الأراضي[٤] فأُهملت تلك المساجد أيضا بسبب الاستيلاء على الأراضي المحبسة عليها وتحويلها الى ملكية خاصة لحساب الأفراد والانتفاع بها دون المساجد أو غيرها[٥] وعندما بدأت الدولة الحفصية

(١) الونشريسى: المعيار: جـ٧،ص٦٢؛ برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٩٦، البرزلي: فتاوى: جـ٥، ص٣٩٢، محمد الهاد ى العامري: المرجع السابق، ص١٧٨.

(٢) الونشريسى: المعيار: جـ٧، ص١٣٨؛ البرزلي: فتاوى: جـ٥، ص٤٠٥.

(٣) البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٤٠٥.

(٤) الونشريسى: المعيار، جـ٧،ص١٣٨.

(٥) المصدر السابق، جـ٧، ص١٢٨، البرزلي، فتاوى، جـ٥، ص٤٠٥.

في أطوار الانحلال والانهيار الأخير وبعيدا عن فترات السلاطين العظماء حل بالبلاد الخراب والدمار، تخربت الأحباس في البحر المتلاطم من تلك الفتن والثورات والصراعات على الحكم مما جعل السلاطين الضعاف ووزراؤهم من يقترضون الأموال الضخمة من احباس المساجد الكبيرة مثل جامع الزيتونة وجامع القضية الكبيرة دون رد هؤلاء السلاطين هذه الأموال الى المساجد، مما انعكس بالسلب على عمارة المساجد[١] التي لاقت إهمال كبير على أيدي الوزراء المستبدين والسلاطين الضعاف[٢].

الأحباس على المدارس ودور العلم:

نالت الأحباس مكانة اساسية بالنسبة لمؤسسات التعليم عامة، لأنها كانت تدعم نظامها، وتقيم أركانها، وتمكنها من ادارة رسالتها من حيث أن مواردها كانت المصدر الأساسي لتغطية نفقات المدرسة وبالتالي كانت ضمانا لاستمرار النشاط المنوط بها، وغيرها من المؤسسات التعليمية[٣].

كان للسلاطين الأقوياء و وزراؤهم دور حيوي في التعليم في العهد الحفصي، ويعود الفضل لهما في الحركة التمدينية والنهضة العلمية الظاهرة[٤]

---

١) البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٤٠٦،٤٠٧ وهنا نجد أن السلاطين الضعاف و وزراؤهم قد قاموا بهدم بعض المساجد من أجل الاستيلاء على أحباسهم. راجع البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٤٠٦.

٢) رشا سالم:المرجع السابق، ص٣١٧.

٣) محمد محمد أمين:الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٠، ص٢٤٠.

٤) حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، مكتبة المنار، تونس، ١٩٦٦، ص٩٩، محمد ماهر حمادة: المكتبات في الاسلام ص٨٦، النيجاني: الرحلة، ص٢٢.

حيث أصبحت تونس محطًا لرحال تجار المشرق ومهاجري الأندلس وفيهم الطبيب والفقيه والمهندس والأديب وغير هؤلاء من أرباب الصنائع وأصحاب الحرف فتدفق عمران تونس وعُززت حضارتها وراجت بها سوق العلم والأدب بسبب التعليم ومنشأته التي حرص عليها السلاطين الأقوياء و وزراؤهم(١)

وتميزت الأحباس على المدارس بالكثرة لتوافر العديد من المرافق بها، حيث أمر السلطان أبو زكرياء الحفصي وزراءه ببناء مدرسة الشماعين وأقام عليها احباس كثيرة من أجل رعايتها والانفاق عليها(٢) وكذلك فعل السلطان أبو جفص عمر و وزراؤه عندما أمرهم بهدم فندق كان يشتهر بالمجون والفساد وبنى مدرسة المعرض، وحبس عليها ريعًا كثيرة اشتراه بماله وكتب نفيسة في جميع فنون العلم، واعطى المدرس الشريف أبا العباس أحمد الغرناطي قرطاسين من ذهب وفضة، وطلب منه يفرقها على كل من يأتي للمدرسة، وعندما سمع الناس بذلك أتوا اليها من كل صوب، وحبس على المدرسة رزقًا كبيرًا(٣)

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢،ص٢٦، ٣٧؛ حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات، ص٩٨، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص٤٣٠؛ الوزران: وصف أفريقيا، ص٤٢٣،٤٢٢، ٤٢٥

(٢) الزركشي: المصدر السابق: ص٢٦، ١٣٦، الونشريسى: المعيا ر، جـ٨، ص١٦٢، القلصادي: رحلة القلصادي، ص١١٥، ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص١٥٧

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص٥١، الترجمان: المصدر السابق، ص١٣، ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص١٨٦.

وكانت لهذه الأحباس على المدارس ودور العلم اثرها البالغ في ازدهار العملية التعليمية، لذا اهتم الوزراء وسلاطينهم بها؛وحبسوا علي المكتبات والكتب الثمينة[١]، حتى زخرت بها خزانة جامع الزيتونة في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز و وزراؤه، حيث حبسوا على الكتب في العلوم الشرعية والعربية للغة والطب والحساب والتاريخ والأدبيات مما أدى الى انتعاش عملية الترغيب في التعليم[٢] واستمرت الأحباس في عهد قوة الدولة على المدارس والمكتبات، حيث أمر السلطان ابو عمرو عثمان بإنشاء مدرسة والتحبيس عليها وجعل موارد احباسها تفيض عليها ويكفيها من ناحية الإصلاحات والكتب ومرتبات وترميمات[٣]

كما حبس أحباسًا كثيرة على خزانة الكتب بالمقصورة الشرقية من الجامع الأعظم مشتملة على جميع أمهات الكتب[٤] وحبس على ثلاثة كتاتيب لقراءة القرآن، وكذلك اجرى أحباسا كافية على مدرسة بسوق القلعة، وجعل للطلبة المقيمين بها أحباسًا تجرى عليهم، وحبس على المدرسين بالمدارس من اجل التفرغ للعلم والدراسة وعدم اهمال الدراسة من اجل السعي وراء العيش فقط[٥] حيث وفرت بالمدارس حجرات الاقامة والدراسة مع المكتبة[٦].

(١) محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص٨٦، منى سيد: المرجع السابق، ص٢٨٦-٢٨٧

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٦.

(٣) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٧٨؛ الأنصاري: فهرست الرصاع، ص١٤٠ هامش.

(٤) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٧٨-١٧٩، الزركشي: المصدر السابق، ص١٢٥،١٤٤، البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٤١٩.

(٥) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٧٨.

(٦) بو شامة: المرجع السابق، ص٤٤١.

وفي فترات السلاطين الأقوياء ووزراؤهم وفر المسكن للطلاب وكانت تقدم لهم مبالغ مالية شهرية من أجل المصاريف الشخصية والتعليم والملبس وكانت المدارس في قوة الدولة تقدم سنويا كسوة للطالب مجانا، وكان الطلاب يأخذون رواتبهم مثل الأساتذة والموظفين بالمدرسة من موارد المدرسة من الأحباس، ويبدو أن أقصى مدة تكفل المدرسة الطالب خلالها سبع سنوات(١).

وكانت الأولوية للطلبة الغرباء عن المدينة أو من خارج الدولة الحفصية للسكن داخل المدرسة(٢) وكان ناظر المدرسة ايضا يتلقى مرتبه من موارد المدرسة من الأحباس، ولم يكن راتبه ثابت بل كان حسب زيادة أو نقصان موارد المدرسة من الأحباس والهبات المالية الأخرى التي تتلقاها(٣) ويشرف على تلك الأحباس والهبات ناظر لإدارتها ويساعده عمال يقومون بالإشراف على استغلالها، واستخلاص مواردها، ويتوقف عددهم على حجم تلك الأحباس(٤) وكانت مرتبات الأساتذة مثل منح الطلبة تتراوح بين الثبات والزيادة والنقصان حسب ايراد أحباس المدرسة(٥).

وعلى العكس من فترات قوة السلاطين، كانت فترات ضعفهم واستبداد الوزراء والصراع على الحكم والحروب والفتن فأثر على الأملاك والبساتين المحبسة على المدارس فتدمرت تلك الأحباس التي كانت تنفق منها على

(١) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص٣٤٧، ٣٦٣، ٣٨٣.
(٢) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص٢٦٤، ابن القاضي:درة الحجال، جـ٧، ص٨٠-٨١.
(٣) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص١٢٣، ٢٦٧، البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٤١٩
(٤) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص٩٩، ١٣٤، ١٤٠.
(٥) المصدر السابق: جـ٧، ص٣٤٧، ٣٦٣-٣٨٣.

مرتبات الأساتذة، ونفقات الطلبة والفقراء، ولم يبق للطالب سوى السكن، ولم يبق له أيضًا سوى دخل بسيط، مما ادى الى تقلص الحركة العلمية في الدولة الحفصية، ولم يعد يقيم بهذه المدارس سوى بعض التلاميذ الغرباء[١] ونتيجة لقلة العائد من الأحباس في تلك الفترات الصعبة، ضاق خراج المدارس، ولم يعد يفي بحاجات المدرسة والطلبة القائمين عليها، فلم يجدوا قومه يقومون عليها[٢] مما ادى الى كسر مرتب المدرس أو الطالب[٣] وانعكس ذلك سلبيا على عملية التعليم والقائمين عليها[٤].

فهنا تباين واضح من الأحباس على المدارس أبان أطوار الدولة الحفصية من حيث القوة والازدهار والضعف والانحلال بحيث نجد السلطان أبو زكرياء اللحياني و وزراؤه قاموا بجمع الكتب والزخائر الموجودة في خزانة المكتبة بالقصبة، وقاموا ببيعها مقابل قناطير من الذهب، وهرب بصحبة وزراؤه الى طرابلس ومن هناك غادر الى الاسكندرية[٥] وهذا يدل على مدى الانهيار السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة الحفصية فانعكس على الحياة التعليمية والعلماء والطلاب، مما أصاب المدارس بالخراب والدمار، واستولى أهل الأحباس على مواردها بعد أن خُربت المدارس، واحيانا نقلوا

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص١٣٦؛ حيث يقوم السلطان القوي بأمر وزراؤه ببناء ما تهدم من جراء الحروب، وتكرار تلك العمليات خلال الحكم الحفصي ما بين القوة والازدهار والضعف والانحلال

(٢) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص١٧-١٨.

(٣) المصدر السابق، جـ٣، ص٣٤٢، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١، ص٣٦٦.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٣٦٦.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص٦٣.

أحباس هذه المدارس المهجورة إلى منافع أخرى[١].

الأحباس على الزوايا:

انتشرت الزوايا في العديد من نواحي بلاد لمغرب والأندلس، وكانت دور للعلم والاقامة، وكان ينشأها أهل الخير ورجال الطرق الصوفية والسلاطين والوزراء من أموالهم الخاصة أو يشترك جماعة في انشائها، ويحبسون عليها أحباسا كثيرة من اجل تغطية نفقاتها، وتوكل ادارتها ورعايتها الى ناظر وجماعة من المساعدين، ويحدد المحبسون في عقود الأوجه التي تصرف فيها عوائد الأحباس وطريقة إدارتها[٢] واهتم السلاطين الحفصيون و وزراؤهم أكثر من غيرهم في بلاد المغرب والأندلس بالاسهام في اقامة الزوايا والعناية برجالها، حيث أمر السلطان ابو عمرو عثمان الحفصي وزراءه بالحبس على زوايا بعين الزبيب (تقع بين باجة وتونس)، فكانت الأحباس عليها وافية وكافية للانفاق عليها وعلى المقيمين بها والوافدين عليها[٣].

كما قام السلطان ابو فارس عبد العزيز ووزراؤه بالتحبيس على زاوية باب البحر بتونس بعد أن أمر وزراءه ببنائها، وزاد في أحباسها من أجل الانفاق عليها[٤] وحبس أيضًا هذا السلطان العظيم و وزراؤه على زاوية الفندق بغابة شريك بين تونس والقيروان، وجعلت أحباسها للانفاق عليها وعلى العاملين

(١) البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٣٨٤.

(٢) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص ٣٦، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص٤٢٥.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص١٣٦، ابن دينار: المصدر السابق، ص١٧٨

(٤) الزركشي المصدر السابق، ص١٦٦، ابو عبد الله محمد الأنصاري: فهرست الرصاع، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧، ص١٤١-١٤٢.

بها[١] وجعلها ملجأ لمبيت الواردين الى الحضرة من تونس أو من ناحية القيروان[٢] وتعددت الزوايا والأحباس عليها في عهد السلاطين العظماء وقوة الدولة حيث انتعشت بها الحياة العلمية لما تحتويه من مكتبات ثرية بالكتب الدينية ومناقب الصالحين، ورجال الصوفية،غير ان طبيعة التعليم بها لم تكن تستدعى وجود كتب لكل فروع العلوم العقلية واشتهرت الزوايا بأتجاهاتها وهذا بسبب تأييد السلاطين الحفصيين والوزراء لها من أجل التبرك من دعاء الأولياء لهم ولابنائهم، فيعتبر هذا التحبس خلا من الناحية الدينية عقيما من الناحية الاجتماعية مضرا من الوجه الأخلاقية وخاصة في عهد استبداد الوزراء وضعف السلاطين[٣].

ومع انهيار الدولة الحفصية وضعف السلاطين واستبداد الوزراء سيطر الصوفيون على الزوايا وأحباسها، وعلى الهبات التي كانت ترد على الزوايا، ولكنها استطاعت ايواء الناس ومساعدتهم في أوقات الأزمات والمجاعات[٤].

الأحباس على الأضرحة:

اهتم السلاطين الحفصيون و وزراؤهم بالتحبيس على الأضرحة، حيث

(١) الزركشي: المصدر السباق، ص١٤٤، نللي سلامة العامري:الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لأفريقية في العهد الحفصي، منشورات كلية الآداب، تونس، ص٢٤٦.

(٢) نللي سلامة:مدينة تونس، ص٨٤.

(٣) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص١٧٨. الزركشي: المصدر السابق، ص١٤٤، نللي سلامة العامري: المرجع السابق، ص٢٤٦.

(٤) نيللي سلامة: المرجع السابق: ص٦٠-٦١، ٢٥٤-٢٥٥ ؛ محمد حسن المدينة والبادية جـ٢، ص٦٢٨-٦٢٩.

كانت أحباس الأضرحة تحترم لحرمتها، وكانت هذه الأراضي تحبس للموتى، ولا يتعدى أحدا عليها، ولا تهدم[١] ولكن على العكس في فترات نفوذ الوزراء حيث استباحوا الأموال ثم حبسوا على المقابر، ولكنها اعتبرت أحباس باطلة ونظر الفقهاء الى أولئك الوزراء المستبدين والسلاطين الضعفاء على أنهم مستغرقوا الذمة[٢] حتى أن أحد الشرفاء دفن خطأ في احدى المقابر التي كانت لجاره، فحكم الفقهاء على أن يبق الميت بالقبر ويأخذ الجيران ثمن القبر، لأن المقابر حبس لجميع الناس[٣].

وهنا وقف الفقهاء ضد الوزراء المفسدين والسلاطين الضعاف وأحباسهم على الأضرحة أو على أولادهم وأقاربهم و وذريتهم ذلك لعدم شرعيتها[٤] وظهرت عملية البناء على القبور أو حولها في الأرض المباحة، مما ضيق على القبور والأضرحة وحرمه الفقهاء[٥] ولكنهم أباحوا حبس السلطان من بيت مال المسلمين عن طريق شراء أراضي أو غيرها ويجعلها حبس على الأضرحة أو غيرها، و وقفوا موقفًا متشددًا من أحباس مستغرقي الذمة من سلاطين و وزراء في فترات وأطوار الضعف ونفوذ الوزراء لأنهم استحلوا أموال الناس لأنفسهم بالباطل دون وجه حق بالاضافة الى فساد أخلاقهم ومطامعهم[٦].

---

(١) البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٣٨٦.

(٢) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص٣٠٤-٣١٠؛ محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٣٥٦؛ رشا سالم: المرجع السابق، ص٣١٩

(٣) البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٣٨٧.

(٤) الونشريسى: المعيار، جـ٧، ص٢١١-٢١٣.

(٥) البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٣٨٨.

(٦) الونشريسي: المعيار، جـ٧، ص٢٦٦.

الأحباس على الفقراء والمساكين:

لقد اهتمت السلطة والوزراء بالفقراء والمساكين، حيث اقترن وضع الفقراء الاجتماعي بالمدلول الصوفي لمفهوم الفقير، فكان الفقراء والمساكين لا يملكون موارد كافية لهم من أجل الاستقرار، ولم تتمكن من الاستقرار والاشتغال بالفلاحة[١] فقام السلاطين الأقوياء وبمساعدة وزراؤهم بالتحبيس عليهم من اراضي الدولة[٢] حيث كانت تأخذ واردات تلك الأحباس لشراء ثياب وأطعمة وكسوة لهم في الأعياد الدينية[٣] و أطلقت على أراضي الفقراء والمساكين "أرض المساكين" وكانت تزرع هذه لأراضي وتوزع غلاتها على الفقراء والمساكين في المنطقة المحيطة به وذلك في عصر قوة الدولة[٤] وظهر لقب مشيخة الفقراء في العهد الحفصي لكثرة الفقراء والمساكين والعاطلين عن العمل، فكان شيخ الفقراء هو المسئول عنهم من خلال احدى الزوايا التي كانت تجمع كل هؤلاء الفقراء والمساكين[٥].

وقام السلاطين الحفصيون و وزراؤهم في عهد قوة الدولة بالتحبيس عليهم والاعتناء بها عناية كبيرة حتى يستغنون عن التكفف والعالة، حيث حبس السلطان ابو زكرياء الأول عليهم واهتم بالفقراء والمساكين سواء

(١) محمد حسن: المدينة و والبادية، جـ٢، ص٦٢٨.

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص٣١٩.

(٣) الونشريسى: المعيار، جـ٧، ص٦٣، ٢٧٠، ٢٩٩-٣٠٠؛ كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي، ص٣١-٣٥.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٩٥.

(٥) ابن ناجي: المصدر السابق، جـ٤، ص٥٢-٥٣.

الموجودين في البلاد أو الزوايا[١] ومثله فعل السلطان ابو فارس عبد العزيز الذي حبس على الفقراء والمحتاجين في البلاد[٢] وكذلك أمد الزوايا بالتموين الكافي للفقراء والمساكين بها[٣].

وفي فترات نفوذ الوزراء تدهورت أحوال الفقراء والمساكين بسبب انشغال الوزراء بجمع الأموال بشتى الطرق، فاهملوا شئون الفقراء والمساكين وعدم وجود ما يتعيشون به، وظلت الأراضي المحبسة عليهم مهملة جرداء، وهجرت بسبب الحروب والصراعات، فأجاز الفقهاء ببيع أراضي المساكين والفقراء والانفاق عليهم بدلا من الجوع والفناء[٤] الذي يهلكهم أثناء فترات المجاعات والأزمات التي تزامنت مع الوزراء المستبدين، حيث لا يوجد ما يستطيعون يعيشون عليه سوى بعض التمور أو فتات الخبز[٥] فكان الجوع أشد لدرجة أنهم أخرجوا الأكفان من القبور[٦] وهنا لا ننكر دور الأحباس في انتشال عدد كبير من الفقراء والمساكين من المجاعات والتشرد[٧]، الذي ظهر بوضوح عندما استولى السلاطين الضعاف على أحباسهم[٨].

---

(١) ابن دينار: المصدر، ص١٥٧.

(٢) المصدر السابق: ص١٧٥، الزركشي: المصدر السابق، ص١١٧.

(٣) ابن ناجي: معالم الايمان، ج٣، ص٢٠٩؛ محمد حسن: المدينة ولبادية جـ٢، ص٦٢٩، محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص١٤٣.

(٤) الونشريسى: المعيار، جـ٧، ص٣٣٢.

(٥) ابن ناجي: المصدر السابق، ص٢٠٩؛ محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢. ص٦٣٠.

(٦) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢. ص٦٣١.

(٧) الونشريسى: المعيار، جـ٧، ص٣٨

(٨) مارمول كربخال، أفريقيا، جـ٢، ص١٤٧.

الأحباس على الأرامل والزوجات والذراري:

كان لأحباس السلاطين الحفصيين ووزراؤهم دور هام في الحياة الاجتماعية وأزماتها في المغرب الإسلامي، وخاصة في العصر الحفصي في أطوار الدولة المزدهرة وقوة السلاطين و وزراؤهم المنفذين لسياستهم اتجاه المجتمع، فحبسوا على الزوجات والأرامل والذرارى من أجل تأمين حياة كريمة لهم، وكذلك للحفاظ على بعض الممتلكات من الاستيلاء عليها(١) وعرفت أحباس الأرامل والزرارى والزوجات بأوقاف الوصايا(٢) وعندما سيطر الوزراء على السلطة الفعلية للبلاد في أطوار الضعف والانحلال،و سيطروا على موارد الدولة، ولجأ السلاطين الضعاف الى الخلود والراحة والملذات(٣) فخاف الأفراد على تلك الملكيات وعلى اقاربهم فقاموا بالتحبيس عليهم(٤) وكثير ما حبس السلاطين على الأرامل والأيتام مثلما فعل السلطان ابو فارس عبد العزيز عندما أمر وزراؤه بالتحبيس على الأرامل والأيتام وتصدق بأموال ضخمة عليهم(٥).

وظهرت عملية التحبيس والوصية لإناث معينة كان يكتب اسماؤهم في

(١) الونشريسى: المعيار، جـ٧، ص١٨٨-١٨٩، كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب والأندلس، ص١٢٥-١٢٦، البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٣٣٠-٣٣١.

(٢) محمد المنوني: ورقات، ص١٢٥؛ رشا سالم: المرجع السابق، ص٣١٨.

(٣) ابن دينار: المؤنس، ص١٦٤، ١٧٠.

(٤) البرزلي: فتاوى، جـ٥، ص٣٣٢؛ وتنوعت الأحباس على النسل والذرية، وهناك أحباس على البنين فقط وأخرى للاناث، وظهرت أحباس على أولاد كان عليهم اختلاف في النسب عن هذه القضايا. راجع البرزلي، فتاوى، جـ٥، ص٣٣٢-٣٣٥.

(٥) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٧٧، الزركشي: المصدر السابق، ص١١٦.

الوصية[١] واحيان كان الورثة يتصدقون بكل ما يرثونه على واحد منهم نظرًا لظروفه[٢] وفي عهد فترات الوزراء ونفوذهم اشطاتت عملية اغتصاب الرعية من قبل رجال الدولة و وزراؤهم حتى أصبحوا مستغرقي ذمة، لذا صارت أحباسهم غير صحيحة وكانت وصيتهم على أموالهم باطلة[٣].

وخلاصة القول:

نجد أن أحباس السلاطين والوزراء الحفصيين تنوعت في جميع المجالات سواء على المساجد والمدارس والزوايا والأربطة و الأرامل والزرارى وغيرها، وازدهرت هذه المؤسسات إبان فترات الازدهار وتأخرت وانهارت في فترات نفوذ الوزراء وسيطرتهم على السلطة وعلى أموال الناس وأموال الدولة لان الوزراء المستبدين كانت أيامهم معدودة فى الحكم؛حيث كانت تحيط بهم الفتن والصراعات والدسائس من جميع الجهات لذلك لم يكن لديهم وازع ديني؛بل سيطروا على أموال لعامة وأصبحوا مستغرقي ذمة.

الوزراء والحسبة:

خضعت الأسواق الحفصية لنظام شديد من المراقبة والتنظيم ومقاومة الغش والفساد، ومنع التدليس والإشراف على عمليات البيع و الشراء من جانب المحتسب[٤] الذي يعتبر المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية عامة في

(١) الونشريسى: المعيار، جـ٣، ص٣٧-٣٨، جـ٧، ص٨، ٤٦، ٦٣.

(٢) المصدر السابق: جـ٥. ص٣٧-٣٨.

(٣) المصدر السابق. جـ٧، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٤) ابراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص١٠١، محمد عبد لعزيز بن عبد الله: الوقف في الفكر الاسلامي، جـ١، ص٢٢٢-٢٢٥.

المدينة. وللحياة التجارية والصناعية على وجه الخصوص[١] وكان السلطان يولي المحتسب ولايته، وكان مفوضًا في جميع شئون المدينة المعين بها، ويفصل في النزاعات بين أصحاب المهن[٢] وكان السلاطين العظماء بمساعدة وزراؤهم يشترطون لمن يتولى هذا المنصب ان يكون رجلا عفيفا خيَّر عالما لا يميل ولا يرتش[٣] حتى يستطيع ترتيب صناع كل مهنة حسب مكانها، ومنع اعاقة الحركة بالأسواق، والاشراف عل الموازين والمكاييل وتفتيش الأطعمة، ومراقبة الأسعار، ومنع الاحتكار[٤] فكان دائمًا السلاطين الأقوياء وزراؤهم يسندون هذا المنصب الى أهم الشخصيات القضائية من اجل الرقابة الشديدة للمكاييل والموازين، فكان دائمًا يصدر الأحكام ضد المخالفين مباشرة وتصبح نافذة بمجرد صدورها[٥].

(١) زيزي محمد عبد لرحمن: السواق الأندلسية في عصر الخلافة الأموية حتى سقوط الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الزقازيق، ٢٠٠٣،ص ٨٤، مريم جبودة: المرجع السباق، ص١٨٤.

(٢) الشيزري: نهاية الرتبة، ص٦، محمد المنوني: خطة الحسبة، ص٢١٠.

(٣) ابن عبدون: رسالة ابن عبدون، ص٢٠٠.

(٤) ابن خلدون:المقدمة؛ج؛ ص٢٠١، كان المحتسب قويا صارما مع الحرفين والصناع لذلك كانت أيديهم مغلولة ليس بها فساد وزيف وخاصة في القرنين الخامس والسادس الهجري. راجع محمود اسماعيل: الاقطاع في العالم الاسلامي (من منتصف الرن الخامس على أوائل القرن العاشر الهجري) بين الجدول النظري والواقع التاريخي، حوليات كلية الآداب، الحولية الحادية عشرة، الرسالة التاسعة والستون، جامعة الكويت، ١٩٨٩/١٩٩٠، ص٧.

(٥) ابن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص١٣٧-١٣٨، الونشريسى: المعيار، جـ٥، ص٨٨-٨٩، مارمول كاريخال: أفريقيا، جـ٢، ص٥٠.

وظل المحتسب يؤدي دوره بكل قوة وصرامة في عهد السلاطين الأقوياء ووزراؤهم، لأنهم أعطوا ولاية الحسبة اهتماما كبيرا لأنه بقوة المحتسب وعدله يأمن الناس ويشعرون بالأمان، وكان المحتسب في مراقبة مستمرة من قبل قاضي القضاه[١] وكان لمحتسب تونس في العهد الحفصي مهام اقتصادية كبيرة أهمها الأسواق[٢] بجانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣] فكان هو الشخص الذي يحل الربط بين الشرعية الاسلامية والنشاط الاقتصادي ويتضح هذا الربط بوضوح من تصميم المدينة نفسها، اذ يجاور فيها المسجد الأعظم والحي التجاري والأسواق مثلها مثل باقي مدن المغرب الكبرى وكان المحتسب يختار عريفًا أو أمينًا لكل صنعة، من بين أفرادها، يشرف على أحوال طائفة ويطلعه على اخبارهم وحيلهم، حتى يتسنى له مراقبتهم[٤] كما جعل المحتسب لكل سوق أمن للتسعيرة، وسمسار للتوسط بين البائع والمشتري، كما كان في كل مكان عريف ونائب عريف وصناع، وكان العريف هو المسئول عنهم جميع تحت الإشراف الأعلى للأمين[٥] وكان على الأمناء مراقبة الموازين والمكاييل[٦] منعًا للغش والتلاعب، ولذا فقد كان يطبع على جوانبها "طبع

(١) محمد سويسي: أنماط العمران البشرى؛ ص٩٢.

(٢) جوليان: المرجع السابق، جـ٢، ص١٩٣.

(٣) محمد سويسى: أنماط العمران، ص٩٢، برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٥٢.

(٤) الدباغ: معالم الايمان، جـ٣، ص١٢١، ١٦١.

(٥) عثمان الكعاك: الحضارة العربية، ص٩٣.

(٦) اختلفت تقديرات وحدات الموازين والمكاييل من مدينة لأخرى ومن دولة الى أخرى في بلاد المغرب والأندلس، كما كانت تلك التقديرات تتغير أحيانًا مع تغير الحكام في الدولة الواحدة، وكانت متنوعة منها القنطار يساوي ٥٠,٤كجم أو ١٦٠٠أوقية في تونس، والرطل

موصل" بأعلاها حتى لا يزيد حجمها، وكان يأمر بمسحها في كل وقت وعند كل وزن حتى لا تتسخ ويثقل وزنها، ونصبح أداة للغش وتزييف للمكاييل.

ولكن انعكس الوضع تمامًا في فترات ضعف الدولة وسيطرة الوزراء حيث تدهورت ولاية الحسبة بشكل ملحوظ، واصبح يتولاها كل من يطلبها مهما كان وضعه وعلمه فتقلدها سفلة القوم ومن لا يعرفون عن العلم شيئًا، فنرى المحبس جامدًا وفاسقًا، حيث أى العشاء السياسي للسلاطين والوزراء فانعكس ذلك على مشاد العلماء والفقهاء المولين للسلطة وسعد أصحاب تلك المناصب الى جمع الأموال وتكوين الثروات[1] وظهرت المشكلات التي ظهرت في المجتمع الحفصي نتيجة لتدهور الأوضاع وفساد المحتسب

منه ثلاثة أنواع في الدولة الواحدة، الرطل العطاري ويساوي ١٦ أوقية والسوقي يساوي ١٨ أوقية، والشرعي يساوي ١٢ أوقية أو ١٢٨ درهمًا من الكيل والأوقية تساوي ٢١ درهما من دراهم الكيل يساوي ٥٠ حبة و ٥٤ حبة، وهي حبة شعير غير مقشرة، والرانق يساوي ٨,٤ حبة، والقيراط يساوي ٣حبات، والحبة لربعة أرزات، والأرزة أربعة سمسمات، والسمسمة ٤ خردلات، والخردلة ٤ ورقات نحل،وورقة النحل أربع ذرات، والذرة $\frac{1}{1024}$ من حبة الشعير، وكان القفيز في القيروان كان يساوي ١٨٧لترا أو ١٦ روبية، سيتى كان يسمى في تونس ١٧٥,٩٢ لترا أو ١٥ ريبة، وتنقسم الويبة الى ١٢ صاعًا، والصاع يساوي ١٢ مداص والمد اخره الرسول(ص)، والمد النبوي يزن ٤٠٠ جرام من الشعير، ٥٢٥ من القمح. راجع: ابن يوسف الحكيم: الدوحة المستيكة، ص١٣٧-١٣٨، ٩٧-٩٩، ١٠٤، ١٤٦-١٤٧؛ العمري وصف أفريقيا، صـ٤، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص١١٤، نجاة باشا: المرجع السابق، ص.٨٩.

(١) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٤٩١.٤٩٢، محمد المنوني: خطة الحسية في المغرب، ص٢١٩، رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٢٥.

ومعاونيه حيث وجدت الميازيب التي تجري بالنجاسة والغسالة الى الأماكن التي يمر بها الناس مما تعزر تحرك الناس، بل كانوا أحيانًا يمرون بجوار الدواب التي تلوث وتنجس ثيابهم بروث وبول الحيوانات واستمر المحتسب غائب عن المشكلات الحفصية، فبدأ الناس يؤذون بعضهم البعض كتضيقهم في الشوارع بتكديس المرحضات المستخرجة من سروب المحلة ووضع كومات منها وتركها في الأماكن الضيقة، فيقع بها الصبيان، ويتنجس المارة منها وكثرت الشكاوي[١] ولكن السلطة الحفصية كانت في حالة انهيار وتدهور تام ولا وعي للسلطان الذي حجب نفسه عن الناس من أجل ملذاته ولهوة[٢] وانعدم منصب المحتسب تمامًا في أطوار الانهيار، وحدث ذلك عام ٧٤٩هـ . ١٣٤٨م، حيث انعكست الحالة السياسية المتردية للبلاد، وحدث غلاء شديد لأسعار السلع داخل الأسواق التي لم تجد رقيبًا ولا حسيبًا، ووصل سعر دقيق القمح ثمانية دنانير من الذهب، وعانى الناس الكثير من جراء تلك الأزمة وابان الوباء، واندثر السلطان الحفصي و وزراؤه ومعاونيه[٣] على العكس من فترات السلاطين الأقوياء و وزراؤهم، ودور المحتسب النشط حيث المراقبة الصارمة على البائعين، فيعم الرخاء، ويقبض عن حاجة السكان، وتستقر الأسعار في الأسواق، فمتوسط سعر القفيز من القمح يساوي خمسين درهما، والشعير أقل م ذلك، ورطل اللحم الضان بدرهم، وباقي أنواع اللحوم

(١) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٥٠٠.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص١٠٤، ابن دينار: المؤنس: ص١٧٠، ١٦٤.

(٣) ابن دينار: المؤنس، ص١٦٩، الزركشى: المصدر السابق، ص.

الأخرى أقل في الثمن، وثمن الدجاجة درهمان[١] حتى أبان حدوث المجاعات والأوبئة في فترات السلاطين الأقوياء و وزراؤهم، حيث أمر السلطان أبو عمرو عثمان وزراؤه ومحتسبه عام ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م باخراج من مخزون كل يوم ما يصنع من ألف خبزة، تصرف على فقراء تونس حتى ترخص وتقل الأسعار، وبالفعل كثر القمح ورخص ثمنه[٢] بسبب مساعدة المحتسب وأعوانه للوزراء الحفصيين وسلطانهم.

وفي عهد نفوذ الوزراء وضعف السلاطين استمر غياب المحتسب ومعونيه عن الأسواق بصورة واضحة فأصبحت الأسواق مكانًا يختلط فيه الرجال والنساء وسفلة السماسرة، وربما لأقام هؤلاء النسوة لمحادثة هؤلاء ومزاحهم، وهذا من المنكرات التي تدعو إلى ارتكاب المحارم، فكان على المحتسب أن يقدم أمناء ويختار ثقات السماسرة وشيوخهم زيمنع من كان سئ التصرف، ويجعل النساء موضعًا مستترًا يخضعن للخلوة في فضاء ما يحتجنا اليه اذا اضطررن لذلك بحيث لايخالطهن الرجال[٣].

كما وجد بياعون يرفضون البيع لأناس بعينهم، كما شكى أولئك الناس إلى المحتسب بأن الجزار يمنعهم من شراء اللحم وجعلها لآخرين، فقام المحتسب بمعاقبة الجزار وأمره بخدمة جميع الناس ومنعهم بعدم الاساءة للمشتريين، وعدم تخصيص بضاعة لأحد[٤] واستمرت التجاوزات من الناس

(١) العمري: وصف أفريقيا، ص٦، القلقشندي: صبح الاعشى، ص١١٥.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص١٥٠.

(٣) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٥٠٠، رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٢٥، ٣٢٦.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٥٢.

في الأسواق مع استمرار انهيار السلطة وضعفها وسيطرة الوزراء وغياب المحتسب، فأنتشرت عملية تعذيب الحيوانات في الأسواق، حيث حمل الحطابون أحمال طائلة على الدواب، وضربهم ضربًا مبرحًا، وعذبوا الدواب وتركوها بأوساخها وطينها عليها دون ازالته أو غسله[١] واشتدت الاساءة للحيوانات مع أمر الرسول (ﷺ) بعدم تعذيبهم، فهناك من يضربهم بشدة، وثقال الأحجار والحبس عليهم، فغاب المحتسب ومعاونيه عن حماية الحيوانات[٢]

ومع غياب المحتسب عن أداء وظائفه الأساسية وتدهورت الأسواق وانتشرت بها المنكرات وعقود المعارضات، وظهر التعامل بالربا في الأثمان والمعاملات بصورة كبيرة بين الناس[٣] وانتشرت العملات المزيفة والعمل بها في الأسواق بصورة علنية مثل الدنانير والدراهم المزيفة[٤] فاذا وجدت هذه

(١) الشيزري: نهاية الرتبة، ص١٤.

(٢) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٥٠١.

(٣) لقد حرم الله سبحانه وتعالى الربا لأن له أثارا خطيرة على المجتمع الذي ينتشر فيه، فله أضرار اقتصادية واجتماعية ونفسية، حيث يؤدي الى ارتفاع الأسعار وغيرها، ويقول سبحانه وتعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران آية ١٣٠) وقال الرسول (ﷺ) **(لعن الله أكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه)** وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله (ﷺ) **(الربا سبعون حوبًا أيسرها أن ينكح الرجل أمه)** صحيح ابن ماجه جـ٨،ص١٨٤، راجع الشعرائي: كشف الغمة عن جميع الأمة، جـ٢، ص١٠، البرزلي: فتاوى، جـ٣، ص١٤-١٦

(٤) البرزلي: فتاوى، جـ٣، ص١٥٣ حيث انتشرت عمليات العملات المزيفة في فترات سيطرة الوزراء وانحلال الدولة فظهر درهم ردئ وأخرى مزيفة في الاسواق الحفصية، فجعل الفقهاء يحرمون استعمال هذه العملات المزيفة راجع البرزلي: الفتاوى، جـ٣، ١٥٤.١٥٥.

العملة المزيفة قوة وردعًا من المحتسب وسلطته، استطاع السيطرة عليها ومنعها من السوق، وهذا ما حدث عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م حيث كثرت غش دراهم نحاسية بشكل كبير في الدولة الحفصية، وجرى الناس على تداولها، فأمر الفقهاء باستمرار استخدامها حتى لا يؤدي الى اتلاف رؤوس أموالهم فاستمرذ لك شهر حتى جادت دراهم كثيرة نحاسية مطلية وشاعت في البلاد وزاد غشها بشكل كبير من الفسقة والمزيفين وتفاوتت درجة غشها، فوقف المحتسب والوزراء بشدة ضد هذه العملة ومنعوا التداول بها[١].

وفي فترات انهيار سلطة السلطان وتحكم الوزراء وغياب المحتسب انتشرت عملية خلط السلع السليمة بالسلع الفاسدة في الأسواق من أجل الحصول على أرباح كبيرة مثل الفاكهة[٢] وزهو النحل[٣] وخلط الزيت القديم بالجديد[٤] وكثرت عملية خلط حتى غش الصباغين الألوان وذلك بخلط الزعفران الجيد بالردئ دون رادع ولا رقيب[٥] وكذلك انتشرت دور الدباغة داخل البلاد بعد ما كانت خارج الأسوار حتى لا يتأذى الناس بالرائحة الكريهة لمخلفاتها وتؤثر على صحتهم العامة وتنتشر بينهم الأمراض،

(١) المصدر السابق، جـ٣، ص١٥٥، ١٨١، ١٨٠.

(٢) البرزلي: فتاوى: جـ٣، ص١٧٨.

(٣) المصدر السابق، جـ٣، ص١٧٩.

(٤) المصدر السابق فتاوى: جـ٣، ص١٨٥-١٨٦.

(٥) الونشريسى: المعيار، جـ٥، ص٢١٧. لم تتوقف عملية غش الفواكه والتمر والصباغة فقط بل شملت الزيوت والخضروات والمرجان واللحوم والقمح وغيرها من السلع، راجع البرزلي: فتاوى: جـ٣، ص١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧.

فانتشرت الروائح الكريهة لها وتأذى الناس منها[١].

وكسدت الأسواق وفرض السلاطين الحفصيون الضعفاء ووزراؤهم المستبدون الضرائب على الأسواق والصناع والتجار وتعسفوا في جمع الضرائب، مما أثقل كاهل الصناع والباعة، فخربت الأسواق وأغلق الكثير من الدكاكين بها[٢] في فترات الضعف والانهيار وسيطرة الوزراء.

واستمر الوزراء في السيطرة على السلاطين الحفصيين الضعفاء واستمر معهم غياب المحتسب فكثر المخنثون بالأسواق يتعاملون بالنقود الفاسدة[٣] على العكس مما فعل المحتسب في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز و زرائه الذين قاموا بنقل وطرد المخنثين من الأسواق والبلاد الى خارجها[٤] وزادت البطالة والفساد في الأسواق ومعها كثر السحر والشعوزة ولجأ السحرة الى عمليات النهب والنصب والسلب طلبًا للمال في حين انعكس ذلك على الحالة العامة للبلاد ويأس الناس من إعادة الإصلاح لأن الأمور كانت تشير الى الأسوء بسبب استمرار الحروب والصراعات الفتن في نهاية الدولة أي بعد عصر السلطان أبى عمرو عثمان، وان انتعشت الأموال في أوقات قليلة ولكنها لم تمنع من سقوط الدولة.

(١) الونشريسى: المعيار، جـ٨، ص٤١١، ٤٤٦؛ البرزلي: فتاوى، جـ٣، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢) الوزان: وصف أفريقيًا، ص٤٦٠.

(٣) المالقي: آداب الحسبة، ص٨٤، رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٢٧.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٧.

الوزراء والعامة

اختلفت علاقة العامة بالوزراء على مر تاريخ الدولة الحفصية فكانت العلاقة بينهم شدًا وجذب فكانت قوة السلطان مؤثرة بدرجة كبيرة عن علاقة الوزراء بالعامة فعندما يسيطر السلطان على أمور الدولة يصبح الوزراء تحت أوامره ينفذون ما يشاء على العكس من ضعف السلاطين وسيطرة الوزراء والتحكم في العامة وخاصة في فترات المجاعات والكوارث الطبيعية حيث وصفت لنا المصادر صور مأسوية للعامة في العهد الحفصي حيث نجد ارتفاع في الأسعار للحبوب ونقص الإنتاج الزراعي فبلغ قفيز القمح ٢٠ دينارًا ذهبًا و١٠ دنانير للشعير مما أصاب الناس من خوف ورعب شديد وصاروا يموتون في الأزمة والأسواق[١] التي كانت تعتبر الملجأ الى العامة من أجل البحث عن الخبز في ظل غياب تام للسلطة والوزراء الحفصيين مما أعطى الفرصة لظهور الصوفيين الذين وقفوا بجوار ألئك العامة المتهالكين وامتصوا ردود أفعالهم في ظل غياب تام من السلطان الضعيف والوزير المسيطر على أمور الحكم فلا يشغله من يموت أو يجوع ولكن كان هدفه هو النجاة بنفسه وبسلطانه الذي ببقائه على العرش يكون هو صاحب الكلمة والسلطة[٢] على العكس من ذلك فنجد أن السلطان القوي و وزراؤه المنفذين لسياسته ويقومون بأوامره خير قيام فعندما حدثت مجاعة سنة ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م في عهد السلطان أبى عمرو عثمان أمر سلاطين بني حفص الأقوياء وبلغ ارتفاع

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ٦٧٥.

(٢) مناقب أبي حسن الشاذلي، طبقة حجربة، ص٥، محمد حسن، المدينة والبادية، ج ٥، ص٦٧٥.

الحبوب أقصاه حتى بلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهبًا والشعير نصف ذلك فشكى العامة قلة الطعام والغلاء الى السلطان أبي عمرو وعثمان فأمر السلطان وزراءه بإخراج ما يصنع ألف خبزة من المخزن تفرق على الفقراء بتونس بباب ينتجمي، فبدأ بتفرقها في ثالث ربيع الثاني ودام الى رجب حتى كثر الطعام ورخصت الأسعار[١]. وفي عهد السلطان المستنصر بالله احتج العامة احتجاجًا شديدًا ضد السلطة الحفصية بسبب وجود عملة مزيفة من النحاس سميت بالحندوس على غرار العملة الفضية بالمشرق[٢] ونادى العامة بمنعها والضرب على أيدي المفسدين والمزيفين لها[٣] فقام السلطان و وزراؤه بالضرب على أيدي المدلسين وامر السلطان وزراؤه بضرب درهم جديد عوضًا عن القديم المزيف عن طريق اليهود المتناولين لصرفها وصنعها[٤].

وعندما شهدت البلاد التونسية نقصًا في الإنتاج الفلاحي[٥] في عهد السلطان أبي اسحاق (٦٧٩هـ - ٦٨١هـ / ١٢٧٩ . م) فاستفحلت ظاهرة الجوع وانتشرت في جميع البلاد[٦] حتى أكل العامة القمح فريكًا في ربيع ٦٧٨هـ م ١٢٧٩م وماتت الماشية وانهارت المحاصيل[٧] فكانت هذه الظروف مناسبة لظهور غضب العامة ضد السلطان و وزراؤه محمد بن هلال وابن الجبر

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص١٥٠.

(٢) ابن خلدون، القيرامي جـ٦، جد١٣، ص٦٥٨.

(٣) المصدر السابق: جـ٦، جـ١٣، ص٦٨٩.

(٤) المصدر السابق: جـ٦، جـ١٣، ص٦٥٨ / محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٧٦.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص٤٥، محمد حسن المدينة والبادية جـ٢، ص٦٧٧.

(٦) ابن الشماع: المصدر السابق، ص١٣٦.

(٧) الزركشي: المصدر السابق، ص٤٥.

بسبب إتباعه لسياسة الإسراف والتبذير وقت هذه الشدة بالاضافة الى قلت المجابي وكثرة الانفاق[١] ومع تشدد الجباة في جمع الضرائب[٢] وسياسته لاجتماعية هو وزراؤه مع العامة وازدياد التوتر الاجتماعي بينهما[٣] واستيلاءه على البلاد الغربية واستيلائهم على الأموال والمنازل والحريم[٤].

وظهرت حركة الداعي ابن أبي عمارة في البلاد الحفصية، فبادر برفع الضرائب على الناس وأهمها ضريبة الإنزال[٥] وعلى الفور أنضمت اليه جميع العامة الموجودة بالأسواق وساندته بشده من أجل تمكينه في الحكم[٦] في نفس الوقت لم يستطع السلطان ابواسحاق من السيطرة على جيشه لمواجهة أبي عماره لأن وزيره الأكبر ابن ياسين التحق بابن أبي عمارة وتبعه طبقات الجنود، وهنا فقد السلطان مساندة الخاصة من وزراؤه وجيش وعامة الذين قد سئموا حكمه، فهرب اتجاه بجاية[٧] ثم دخل ابو عمارة العاصمة ومركز الحكم تونس محمولًا ومحاطًا بالعامة المزدحمين من حوله عند باب منارة في ٢٧ شوال ٦٨١هـ وبويع البيعة الخاصة والبيعة العامة[٨].

---

(١) ابن القنفد: المصدر السابق، ص١٣٦، ١٣٩.

(٢) ابن خلدون: العبر: مج٦، جـ١٣، ص٦٨٦، ابن الشماع: المصدر السابق ص٧٧.

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٧٩.

(٤) ابن القنفذ: المصدر السباق: صـ ، الزركشي: المصدر السابق: ص٤٣

(٥) ابن خلدون: الغير، مج ٦، جـ١٢، ص٦٩٢

(٦) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٨٠

(٧) الزركشي: المصدر السابق؛ ص٢٧، ابن خلدون: العبر، ٦، جـ١٢، ص٦٩٢، ابن ابي دينار: المصدر، ص١٦١، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٨٠.

(٨) الزركشي: المصدر السابق، ص٤٧.

وخرج أبو فارس ابن السلطان الحفصي بجيشه من زكاية لملاقاة الداعي ابن أبي عماره في صفر ٦٨٢هـ، ولكن كانت الهزيمة من نصيبه مما جعل عامة بجاية يتمردون على الحكم الحفصي وينضمون الى الداعي أبي عمارة، فقاموا بنشر الفوضى والاضطرابات بالمدينة، وتنكروا لسلطة الأمير الحفصي، وحاوا الفقهاء احتواء هذه الأزمة ولكنهم فشلوا، ورفصوا الانصياع لكلام القاضي عبد المنعم بن عتيق الجزائري من أجل الانصياع إلى الحكم الحفصي، فاعترضوًا عليه وهبوا على بيته فقتلوه، ثم قاموا بترحيله عن البلاد بحرًا، ونادوا بطاعة ابي عمارة وقدموا عليهم محمد بن سرغين[١] وقام العامة بملاحقة الأمير الحفصي أبى زكرياء عند هروبه وقتله، وأرسلوا برأسه إلى تونس وطيف بها على عصا في الأسواق أمام فرح شديد من العامة فولول النساء وضحك السفهاء[٢]

وأعطى السلطان ابن أبي عمارة سلطات للعامة تهدف الى تحسين أوضاعهم داخل البلاد التونسية[٣] مما أغضب فئات أخرى من المجتمع وخاصة البدو ووزراؤه بسبب تنامي دور العامة وتهميشهم، وعندنا أحس السلطان بتحيز وزارئه ورجال دولته للعامة، واستخدام القسوة معهم، قام على الفور على الوزير الأكبر لدولته ابن ياسين وقتله واستصفى أمواله[٤].

(١) ابن خلدون: العبر،مج٦، جـ١٢، ص٦٩٤، ابن القنفد: المصدر السابق: ص١٤٣، الزركشي: المصدر السابق: ص٤٩.

(٢) الزركشي: المصدر السابق: ص٤٩.

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٨٣.

٤) ابن خلدون: العبر، مج٦، جـ١٢، ص٦٩٥.

وكانت نهايته أيضًا ممتزجه بعلاقاته العامة، فعند هروبه من تونس أثناء دخول السلطان أبى حفص للعاصمة، تم القبض عليه في أحد بيوت العامة الحرفيين، يقع قرب الصفاريين عند باب السوقة لرجل أندلسي يسمى أبو القاسم القرموني في ٢٣ ربيع الآخر ٦٨٣هـ[١] وهناك قبض عليه وقتل[٢].

وهنا نجد عندما يحسن السلطان للعامة، تنتعش أحوالهم، ومعه يحسن الوزراء اليهم، ويكون دائم الحسن للوزراء الى عدم الاساءة اليهم ومراعاة شئونهم وفي حالة الاخلال بأوامره يكون مصيرهم القتل وتصفيه أموالهم، حيث كانت علاقة وزراؤه بالعامة سيئه جدًا، حيث اتبعوا الشدة والعنف معهم، على الرغم من أن السلطان ووزراؤه قاموا برفع الضرائب عنهم في بداية الأمر[٣] ولكنهم سعوا الى الكسب وتكوين الثروات على حساب العامة حيث نجد ابن مكي وزير المالية لأبي عمارة يكون ثروات طائلة بسبب نفوذه وسيطرته على السلطان[٤] ومع ضعف السلاطين وتلاشي سلطاتهم وسيطرة الوزراء عليهم مدى ظهور دور العامة وبشدة[٥] وظهر هذا الدور السياسي الواضح عندما توفي السلطان أبو يحي بن أبي بكر سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م،

---

١) ابن خلدون: العبر، مج٦، جـ١٢، ص٦٩٥-٦٩٦، ابن القنفذ: الفارسية، ص١٤٥ ، الزركشي: المصدر السابق، ص١٥٠، ابن الشماع:المصدر السابق، ص٨.

٢) الزركشي: المصدر السابق ص٤٧، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٨٣.

٣) برنشفيك: المرجع السابق، جـ١، ص١١٩.

(٤) المرجع السابق: جـ٢، ص١٠٧.

(٥) محمد حسن:المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٨٣.

وتنازع أبناؤه أبو العباس أحمد من ناحية ضد أبى حفص عمر من ناحية اخرى من أجل الاستيلاء على الحكم، فكان لأبي حفص علاقات ودية مع العامة، فساندته في هذا الصراع واستطاعت الوقوف الى جواره عند اقتحامه للمدينة على أخيه أبي العباس أحمد. وتصدت معه لجيش أخيه بكل قوة، حيث قتل في هذا الصراع عدد كبير من العرب المصاحبين للأمير ابي العباس أحمد، ونتيجة لذلك استولى أبو حفص عمر على الحكم(١).

وعندما استولى أبو عصيدة على السلطة بمساعدة قبائل الكعوب أصبحت هذه القبيلة، قبيلة مخزنية، فتحصلن على الاقطاعات والضرائب وازدادت قوتها، وبدأت في التوسع شمالًا الى مشارق مدينة تونس فقاموا بالإضرار بمصالح الناس وحطموا الزروع واستولوا عليها(٢) مما أثر على الفئات الشعبية الموجودة بالمدينة، فشاطت العامة لذلك التصرف ولا نجد من يمنعهم ويصدهم عن غرورهم، واستهزائهم بالسلطة الحفصية من سلطان و وزراء، فأدى ذلك الى الغلاء الذي وقع على العامة(٣) فكان رد فعلهم عنيفًا اتجاه الأعراب فكانت الفرصة مواتية لهم عندما دخل هداج بن عبيد الكعبي بجامع الزيتون بخفيه في الخامس عشر لشهر رمضان عام (٧٠٥هـ / ١٣١٢م) بعد صلاة الجمعة، فزجره بعض الناس عند ذلك قال: (دخلت والله بهما على السلطان) فأستشاط العامة عليهم، وقاموا وقتلوه وجرو شلوه في طرق تونس مما دفع قبائل الكعوب بقيادة عثمان بن ابي دبوس للتحرك الى

(١) ابن خلدون:العبر، حر٦، جـ١٢، ص٨٠٩-٨١٠، الزركشي: المصدر السابق، ص٨١.

(٢) ابن خلدون: العبر مجـ٦، جـ١٢، ص٧١٥، الزركشي: المصدر السابق، ص٥٦.

(٣) راجع ابن خلدون: العبر، مجـ٦، جـ١٢، ص٧٥-٧٦ ، الزركشى: المصدر السابق، ص٥٦

تونس ومقاتلة العامة، تخرج معهم الوزير أبو عبد الله محمد بن يرزكين في العساكر وقاتلهم حتى ردهم الى مواقعهم خارج المدينة[١].

ولكن لم تركن قبائل الكعوب وترضخ للسلطة الحفصية بل استمروا في بثهم وعبثهم واضرارهم بالناس، وعلى الرغم من خروج الوزير ابن يرزكين مرة ثانية من اخضاعهم ولكنهم رفضوا واستمروا في عصيانهم، وتواطئ معهم الوزراء والحاجب وكان على رأس المساندين لهم ضد العامة الوزير الحاجب ابن الدباغ الذي لم يستطع مدافعتهم وهزيمتهم وتركهم يسقون العامة أشد أنواع الرعب والفزع، مما جعل العامة يتحركون اليه في القصبة، بعد أن ذهبت شكايتهم الكثير هبًا، فقام ابن الدباغ بسد الباب في وجه العامة بعد أن سأت العلاقة بينهما، فقاموا بالقاء الحجارة في مقرة، وطالبوا بقتل ابن الدباغ لشفاء صدورهم، وتحرك هذا التجمع الصاخب للعامة من الأسواق، واقتحموا باب ينتجمي من أجل التخلص منه في الحال[٢] وكاد الأمر يتحول الى مأساة عندما رغب حرس السلطان غلق الباب على المقتحمين وقتلهم ولكن السلطان رفض قتل العامة، وأمر وزيره بأن يدفع الناس بركائز المزاريق لا بالأسنة[٣] ويلاطفهم الى ان سكتت ثورتهم[٤] وتمكن السلطان أخيرًا في السيطرة على الأوضاع، وعزل حاكم المدينة لعجزه عن صد المتظاهرين من

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص٥٦، بن خلدون: العبر، مجـ٦، جـ١٢، ص٧١٦.

(٢) ابن خلدون: العبر، مجـ٦، جـ١٢، ص٧١٦، الزركشي: المصدر السابق، ص٥٧، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٨٨.

(٣) الزركشي: المصدر السابق:، ص٥٧: محمد حسن: المدينة والبادية: جـ٢، ٦٨٩.

(٤) ابن خلدون: العبر مجـ٦، جـ١٢، ص٧١٦-٧١٧.

العامة، وتبع رؤوس قواد العامة من أجل السيطرة على الأوضاع، وهنا نجد أن السلطان أبا عصيدة استطاع بالحيلة أن يصلح ما فسده وزراؤه ورجال كبار دولته مع العامة(١).

وعندما تداخلت وظائف ومهام المناصب نجد أن الحاجب الوزير ابن غمر قد استبد استبدادًا شديدًا بالسلطان، وتحكم ابن غمر في جميع الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عهد السلطان أبي البقاء خالد ومن بعده السلطان ابن اللحياني الذي هو الآخر لم يستطع أن يقضي على استبداده على الرغم الشديد من ضيفة منه(٢) وساءت علاقة بن غمر بالخاصة والعامة، واشتد خناقه على العامة مما جعلهم يفكرون في التخلص منه، فيجتمع عامة قسطنطينية وقرروا الفتك بابن غمر عام ٧١٣هـ/١٣١٣م ولكنه تفطن لذلك، وقام بالايقاع بهم وقبض عليهم، وأوقع بهم، وعذبهم ونكلهم عذابًا شديدا، وبلغت علاقاته بالعامة الى أحلك الظروف حيث اشتد في معاملته لهم، وشدد القسوة عليهم، وتحكم في أعمارهم ولم يجد من السلاطين من يرده الى رشده(٣). في ظل غياب السلطان القوي المسيطر على أمور مملكته.

وبعد أن يأس السلطان أبو يحي زكرياء اللحياني من اضطراب الأحوال وسيطرة الوزراء على جميع البلاد والسلطات ولم يجد ما يستطيع ان يبقي من

(١) ابن خلدون: العبر، مجـ٦، جـ١٢، ص٧١٧، الزركشي: المصدر السابق، ص٥٧، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٦٨٩.

(٢) ابن خلدون: العبر مجـ٦، جـ١٢، ص٧٤٦-٧٤٧.

(٣) الزركشي: المصدر السابق: ص٦٣.

أجله على العرش فهو لا يحرك ساكنًا على الرغم من حبه للعلم والعلماء[١] فقرر الهروب للمرة الثانية ولكن كانت هجرة بدون رجعة الى تونس الحفصية، وجعل على طرابلس ابن عمران الذي اتخذ وزيرًا يسمى البطيس الذي اذاق العامة الويل والعذاب والظلم. فأشتدت الثورات الدامية ضدهم، حتى ضجر وتبرم العامة من أفعال وتجاوزرات الوزير البطيس، فقاموا عليه وطردوا السلطان الضعيف و وزيره المستبدة[٢].

(١) المصدر السابق: ص٦٢.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، جا، ص١٨١.

obeikandl.com

علاقة الوزراء بالمتصوفة[١]

عرف المغرب التصوف والمتصوفة، انتشرت الفرق الصوفية في شتى انجاء بلاد المغرب[٢] وتواجد المتصوفة بأفريقيا منذ العهد الزيري، كان المعز

(١) المتصوفة: جمع متصوف والصوفي هو من اتصف بالصلاح والفقر، ولبس زي الصوفية والا يكون مشتغلا بحرقة، والتصوف هو لبس الصوف لغويًا وهذا ليس صحيح وانما تسموا بالصوفية نسبة الى المصافة بسبب عكوفهم على البادة والانقطاع الى الله سبحانه وتعالى والبعد عن زخرف الدنيا، وأخذت بكل ما يسمونه بالأخلاق والأديان. راجع: ابو عبد الله الزموري (ابي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الزموري): بهجة الناظرين وأنس العارفين، مخطوط مصور بالميكرو فيلم من معهد المخطوط ت جامعة الدول العربية، رقم ١٤٤٧، الرباط ١٣٤٣، ١٤٤٧ تصوف، ورقة ٢٧؛ الأدفوي (كمال الدين بن الفصل جعفر بن ثعلب الأدفوي المصري): الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، ت محمد عيسى صالحيه، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط١، الكويت ١٩٨٨، ص٢١، ابن الزيات (ابي يعقوب بن يحي الشاذلي): التشوف الى رجال التصوف وأخبار أبي عباس السبتي، ت أحمد التوفيق، منشورات لكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط ٢، الرباط، المغرب ١٩٩٧م، ص٣٤،البادسى عبدالحق بن إسماعيل البادسي): المقصد الشريف والمنزع اللطيف فى التعريف بصلحاء الريف ص٢٩، برهان الدين اليافعي: مصرع التصوف أو تسميه الغبي الى تكفيل من عربي وتحزير العباد من المعتاد: ت عد الرحمن الوكيل، ط١، عام ١٩٥٣، ص١٦٥-١٦٧؛ محيي الدين عزوز: التطور المذهبي بالمغرب، الشركة التونسية للتوزيع، تونس،١٩٧٦؛ ص٤٢، عبد الباسط أحمد علي جودة: الأدب الصوفي والاسلامي، دار الرسالة للطباعة، القاهرة، (د.ت) ص١٥،التليلي العجيلي: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية (١٨٨١-١٩٣٩)، تقدم رشا الإمام، منشورات لكلية الآداب بمنوبة تونس ١٩٩٢م،م٢،ص٢٦، adller: op cit, p.١٠٠

(٢) محمد عادل عبدلعزيز: التربية الاسلامية في المغرب،(اصولها المشرقية وتأثيرتها الآندلسية)،مطابع الهيئة العامة للكتاب،١٩٨٧،ص١٢٢، محمد اسماعيل: المرجع السابق، ص١٩٤.

بن باديس يتابعهم ويقتلهم، وظلت هذه الجذور جيدة حتى العهد الحفصي[١] وانتشرت قواعدها المتينة في مناطق مختلفة في البلاد التونسية[٢] وارتبطت الصوفية بالمساجد والرباطات[♦] حيث ملازمة الصوفية لها من أجل القيام بوظائف ومقومات منها السكني والاحتراس ومجانبة الناس والانفراد والانقطاع والتعبد ومزاولة نشاط علمي وذكر وقراءات الأشعار والرقائق[٣] ظل الصوفيون في المساجد حتى ظهرت الزوايا وبدأت فى استقطاب الصوفيين وانشطتهم منذ أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي[٤] وانتشر الصوفيون بأعداد كبيرة وكانت جذورهم من البربر[٥]

(١) البرزلي: فتاوى جـ٦، ص٤٢٢-٤٢٤، سعد الغراب: العامل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٩٠، ط٢، ص١٦٦-١٦٨.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص٤٦٣.

(♦) الرباط: هو موضع الحرس في الأوقات التي يتوقع فيها العدو والرابطة هي سكنى هذا الكان يشتبه بالحراسة وجلب الأهل اليه من أجل الاستيطان ولم يكن مجرد انعزالات للزهاد والنساك يتعبدون ويتهجدون فيها، بل كان حصونًا ثغرية لحراسة السواحل وحماية الملاحة البحرية، واصبحت الرباطات مقر للصوفية، فأصبح هدفها الجهاد والتعبد. راجع البرزلي: فتاوى، جـ٢، ص٣٠، ٣٣، ابن الأبار (ابي عبد اله بن الأبار القضاعي البلنسي): ديوان ابن الآبار، قرأه وتعليق عبد السلام المهراس، مطبعة فضاله، المغرب ١٩٩٩، ص٤٥١، ني لصوفية ي الاسلام، ص٤، جوزيف شاخت، ليكفورت بوزورث: تراث الاسلام،ترجمة حسين مؤنس،صدقى العمد،مراجعة فؤاد زكريا،عالم المعرفة،ط٣،جـ٢، ص٦٢.

(٣) البرزلي: فتاوى، جـ٢ ص٣٣، ٤٥١، نللي سلامة: المرجع السابق، ص٩١.

(٤) نللي سلامة المرجع السابق: ص٩١.

(٥) مجهول: تاريخ البربر، المعروف بمفاخر البربر، تقديم وتحقيق محمد زينهم، جهاد للطباعة والنشر ط١، القاهرة، ١٩٩٨، ص٧٤-٨٥.

فكان التصوف من أعظم أنواع التفكير عند المسلمين في العهد الحفصي[١].

وفي عهد السلاطين الأقوياء و وزراؤهم نشط الصوفيون ونالوا أعلى درجات الاهتمام لأنهم لم يكن لهم أطماع سياسية بالنسبة للحكم، بل قرب السلاطين والوزراء المتصوفة إليهم[٢] فقاموا بتوفير الأماكن الخاصة لهم من زوايا وراطات والعناية بهم واوقفوا عليها احباس كافية[٣] وتجمع الصوفيون بأعداد كبيرة في الزوايا الحفصية التي حرص السلاطين والوزراء على إنعاش هذه الزوايا مما انعكس على دور الصوفيين الاقتصادي والاجتماعي[٤].

والتف الفقراء والمساكين حول الصوفيين في الزوايا مثل زاوية المرجاني والمغربي بتونس وزاوية القديدي بالقيروان، وزاوية الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الكافي بصفاقس، وكان لتقارب السلاطين و وزراؤهم للصوفيين جعل السلاطين الحفصيون يأخذون برأيهم في ولاية العهد، وهذا ما حدث عندما أصاب أبا حفص عمر مرضًا، فعهد لولده عبد الله بالحكم من بعده فاعترض الوزراء وشيوخ الموحدين لصغر سنه وأنه لم يبلغ الحلم فبعث السلطان للصوفي الصالح الوارع أبي محمد المرجاني، وتحدث معه في ذلك فأشار عليه بجعل الولاية من بعده الى محمد بن الواثق الحفصي، الذي حملت فرت به إحدى

(١) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص٢٠٢.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله: معطبات الحضارة المغربية، دار نشر ا لمعرفة، ط ٣، الربا ط،ا لمغرب،(د- ت)، جا، ص١٦٠.

(٣) العلمي: كتاب النوازل، ج٣، ص١٠٥، ١٠٦

(٤) نيللي سلامة: المرجع السابق، ص١٤٦.

الجواري وهي حاملا الى زاوية الشيخ المرجاني فقبلها عنده،وعندما وضعت سماه الشيخ المرجاني محمد وأطعم الفقراء والمساكين في عقيقته عصيدة الحنطة فلقب بأبي عصيدة ثم تربى في ظل السلاطين الحفصيين وبقيت له مع المتصوف ابن المرجاني ذمة، وبالفعل وقع الاختيار على محمد بن الواثق الشهير بأبي عصيدة(١).

قام الشيخ المرجاني وباركه ودعا له وبويع البيعة الخاصة في يوم الأربعاء ٢٢ذي الحجة ثم بويع البيعة العامة بعد وفاة السلطان ابي حفص عمر مباشرة، بمساعدة الشيخ الصوفي والوزراء الحفصيين الذين باركوا هذه البيعة(٢) وكان لهذا الصوفي الكلمة النافذة في السلطان وسيطرة عليه كلية وعلى أمور الدولة مع الوزراء، وبلغت الصوفية والصوفيون أسمى الدرجات وأفضل الظروف ابان فترة السلطان أبي عصيدة والشيخ المرجاني(٣).

وقام الصوفيون في ظل الحماية والرعاية من السلاطين الأقوياء و وزراؤهم بالتدريس في الزوايا والأربطة فالتف حولهم طلبة العلم حيث تتوفر جميع ظروف المعيشة(٤) وقام الصوفيون أيضا بمساعدة الوزراء عند هروبهم فحدث هذا عندما هرب احد الوزراء سنة ٧٠٥هـ اليهم في زاويةأبي الحسن علي بن

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص٥٤، ابن الشماع: المصدر السابق: ص٥٣، ابن خلدون: العبر، مج٦، جـ١٢، ص٧٠٩، ابن دينار: المصدر السابق، ص١٦٣.

(٢) الزركشي: المصدر السابق: ص٥٥، ابن الشماع:الأدلة ص٥٣، نللي سلامة، المرجع السابق، ص١٤٨، مقديش: نزهة الأنظار، جـ١، ص٥٦٠.

(٣) الزركشي: المصدر السابق ص٥٥.

(٤) محمد البهلي النيال: الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي: مكتبة النجاح، تونس، ١٩٦٥، ص٢٦٤.

عبد الكافي الموجوده بصفاقس، وكان معه خمسة بغال محملة بالذهب والسروج والملبوس وحلل وغيرها من أنواع اللباس، ونزل هو وخادمه على الصوفيين بالزاوية المذكورة[١] و هن نجد أن الوزير أصبح في حماة الصوفية الذين استمدوا هذه الحماية من الزوايا التي أصبحت حرمًا لا ينتهك، ورد الصوفي الشيخ ابي الحسن علي بن عبد الكافي على الجنود الذين جاؤوا يبحثون عن الوزير الحفصي، وأرادوا القبض عليه كرهًا وقال لهم "يا فرسان لا تهتكوا الحرام[٢]"، وهنا نجد أن أماكن تواجد الصوفيين أصبحت محرمة، ولا يوازيها سلطة فيقول الشيخ الصوفي " من أتانا زائر رجع مجبور الخاطر، ومن أتانا بجور غائر أعمر الله به المقابر " وهذا يدل على مصير من يفكر في اقتحام ديار الصوفية من زوايا واربطة ومساجد[٣]، متحديين سلطة السلطان وأعوانه من الوزراء، ويدل هذا على من وصل آلية الصوفيين من مكانة داخل المجتمع الحفصي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا[٤].

واستمر الصوفيون في دورهم في ايواء الوزراء الفارين اليهم، ليس تحديا للسلطان و وزراؤه بل من أجل جعل مكانتهم أسمى والحفاظ عليها، وذلك عندما هرب الوزير الحاجب ابو عبد الله محمد بن الدباغ وزير السلطان الحفصي أبى بكر الشهيد، عندما قتل السلطان وتولى لحكم أبو البقاء خالد[٥]،

(١) مقديش: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠٣، نللي سلامة: المرجع السابق، ص١٥٠.
(٢) مقديش: المصدر السابق: جـ٢، ص٣٠٥.
(٣) المصدر السابق: جـ٢، ص٣٠٤، نللي سلامة: المرجع السابق، ص١٥١
(٤) نيللي سلامة: المرجع السابق ص١٥١،برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص٤٦٣.
(٥) الزركشي: المصدر السابق ، ص٥٩-٦٠.

ولجأ الوزير الى الصوفية الموحدين في زاوية الزبيدين بتونس، ولم يستطع وزراء السلطان ابو البقاء خالد بالقبض عليه داخل الزاوية وهو في حماة الصوفيين بل استخدموا الحيلة والاحتيال حتى خرج الوزير ابن الدباغ وقبضوا عليه وأرسلوه إلى السلطان[١] وهذا يؤكد دور الصوفية داخل المجتمع الحفصي، وخشية السلاطين منهم وكانوا دائما يتقربون اليهم والدليل على ذلك أن وزير الإنشاء لأحد السلاطين الحفصيين قد لجأ الى الصوفيين لزاوية الشيخ الصالح العابد ابي محمد بن ابي بكر بن عيسى، ولم يستطع السلطان من دخولها والفيض عليه[٢]ظل زير الانشاء مستجيرًا بالصوفيين مدة سنتين ولم يتعرض السلطان لهم وله حتى وقع الصلح بين السلطان و وزيره.

وهنا نجد أن دفاع الصوفيين عن الوزراء ليس حبًا وتحيزا للوزراء وعداء للسلطان الحفصي و وزراؤه الآخرين بل كانت من إجل إثبات الذات، وفرض انفسهم وهيبتهم على المجتمع الحفصي، ومع اهتمام السلاطين الحفصيين و وزراؤهم بالصوفية، فنجدهم استحوذوا على عدد من ممارسات والطقوسات التي كانت دائمة عند أهل الحديث نظرا لطابعها الثماثلي مع السيرة النبوية بوصفها المثال الأعلى النموذجي الذي يقتدي به، ويشكل المرجعية المعيارية لأي سلوك أو تصرف فيضفى على أهل التصوف مشروعية كانوا في أمس الحاجة اليها في القرون الأولى لظهورهم وبعدهم الى دائرة المرجعية السنينة التي اتهموا بالخروج عليها والارتباط بالدعوة الشيعية[٣].

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص٦٠.

(٢) نللي سلامة: المرجع السابق، ص١٥٢.

(٣) ابن خلدون:المقدمة: ج ص

على الرغم من تأثيرهم في المجتمع الحفصي منذ عهد السلطان أبى زكرياء الأول و وزراؤه ةاستطاع شيخ المتصوفين ابو الحسن الشاذلي أن يبلغ أعلى درجات السمو لدى السلطة الحفصية في البلاد التونسية وتكوين قاعدة صوفية كبيرة انطلقت في جميع بلاد المغرب الأدنى خاصة والأوسط والأقصى عامة، وكان لهؤلاء الصوفيين أماكن تواجد في قرطبة وطرابلس والقيروان والجريد، وحينما حطوا[١] التف الناس من حولهم لما أظهره الصوفيون من قوة وتعاون سواء بينهم أو مع السلطة الحاكمة حيث قاموا بالخفارة في القبائل واستخراج الأموال وهذا ما فعله المتصوفة الشيخ أي غراره شيخ زاوية في قابس فكانت سلطته قوية على أعراب دباب والمنطقة المحيطة به بسبب أعمال الشعوذة التي سيطر بها عليهم فلا يخالفه أحد، ومن تسول له نفسه يوعده بمصائب يوقعها به فيخافون منه[٢].

ونجد سيطرة الصوفية وطرقهم وأساليبهم على السلطان الحفصي القوي والورع ابي زكرياء يحيي عبد الواحد الذي كان يتقشف ويجهد نفسه لا يميل إلى الإسراف في ملابسه وركوبه، وكان يلبس جبه صوف وحزام صوف واكله الخشن وكسوته الثياب المرقعة فكان متمسكًا بأحوال الصوفيين والزهد في الحياة[٣] وتجلى بالسلوك الصوفى الذي انبعث من عنايته بالجوامع والتسابق الي التأذين بنفسه بعد بنائها زاهدًا القصور ومعالم العمران مولعا بالتنكر والتفقد لرعاياه، عطوفا على البؤساء جاعلا نصف عيشه تدعيم قواعد الملك بجمع

(١) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص٤٦٣.

(٢) التجاني: الرحلة، ص١٨٠.

(٣) ابن الشماع: المصدر السابق، ص٥٦.

الاحتياط من الأموال وجعل وزراؤه يحذون حذوه من ناحية التصوف ومعاملة الصوفيين، والزهد في الحياة وعدم الميل الى الاسراف والترف و أعطى وزراؤه درسًا في التقشف وعدم لبس الملابس الرقيقة وحذرهم من المبالغة في الملبس والمأكل والمشرب حتى لا يلومن إلا أنفسهم(١) وكان دائم الجلوس هو ووزراؤه مع الأدباء والعلماء المتصوفين مثل ابن عصفور الصوفي الفقيه، فكان يحاكيه ويناقشه(٢) وكذلك فعل الوزير ابن تافراجين مع المتصوفة حيث ظل يدعم المتصوفة بكل ما أوتى من قوة عن طريق الحماية والأمان والأموال والتحبيس عليهم(٣).

وتأثر الرعيل الأول من السلاطين الحفصيين ووزراؤهم بالتصوف أكثر من غيرهم، حيث كانت شبكة من المتصوفة ممتده من الأندلس إلى تونس في قوة خارقة فتكون هنا وهناك وحدة متماسكة متضامنة متكافلة فيما بينها لا يعرف اسرارها إلا الفقيه بها، والعارف بطقوسها وهيهات أن يندمج فيها ما ليس مستعدًا لها(٤) وأستمر السلاطين الأقوياء ووزراؤهم على علاقات قوية بالمتصوفة فكان معظمهم مثل أبى فارس عبد العزيز محبًا للصوفيين ورجالهم وتقارب اليهم وانفق عليهم الكثير من الأموال(٥) وكذلك السلطان أبو عمرو عثمان عظم الصوفيين وأعطاهم قدر كبير من الرعاية والاهتمام فأمر وزراؤه

(١) ابن الشماع: المصدر السابق، ص٥٥-٥٦، ابن دينار: المصدر السابق، ص١٥٦.
(٢) ابن الشماع: المصدر السابق، ص٥٤.
(٣) ابن ناجي: معالم الايمان: جـ٤، ص١٥٨-١٦٠.
(٤) محمد الهادي العامري: المرجع السابق: ص٢٠٧، الونشريسى: المعيار، جـ٧، ص٢٢٧.
(٥) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٧٥.

من الاكثار من بناء الزوايا لهم، وأقام المشروعات ذات الصبغة الدينية حيث ازدهرت الحركة الصوفية أبان فترة حكمه حيث لقت تشجيعا وحماسا منقطع النظير من السلطان و وزراؤه مما أعطى الحركة الصوفية والصوفيين قدرًا كبيرًا من النفوذ مثل الوالى الصوفي الذائع الصيت سيدي ابن ابي عروس الذي عمل على تمثيل الصوفيين أصدق تمثيل في العاصمة تونس[١]. وقام الصوفيون بتوسيع آفاق الإسلام[٢] وقام السلاطين والوزراء بتزويد زواياهم بالامدادات[٣].

واستمرت علاقات السلاطين والوزراء قوية مع الصوفيين في أطوار قوة الدولة، مما انعكس على الصوفيين الذين قاموا بأعمال عديدة منها إطعام أهل السفر والواردين عليهم حيث جعلوا على طعامهم البركة وهنا يقول أحد

(١) برنشفيك: المرجع السابق، جـ١، ص٢٧٢-٢٧٣.

(٢) انور الجندي: الاسلام وحركة التاريخ، رؤيا جديدة في ما حقه الاسلام، دار الكتاب اللبناني، بيرت د.ت، ص٣٦١.

(٣) الاقطاع: هو في التاريخ الاسلامي يعني الأرض التي ليس لها مالك ولمنح الفرد ما أ ى جهه معينة مقابل أن يدفع خراجها اوعشورها، والمعنى اللغوي لها يقال اقتطع طائفة من الشئ أخذها واستقطعه اياها أي سأه أن يقطعه او يعطيه اياها راجع: الفيروز أبادي أمجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق مؤسسة الرسالة، اشراف محمد نبيه العرقسوس، طبعة فنية منقحة ومفهرسة، طبعة أجاد التراث العربي ط١، بيروت، ١٩٩٧، ص٢٤٧٢، المقريزي: الخطط المقريزية، جـ١، ص٩٥؛ حول نظام الاقطاع في المغرب راجع: محمود اسماعيل: الاقطاع في العالم الاسلامي، حوليات بكلية الآداب، تصدر عن مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية الحادية عشر، الرسالة التاسعة والستون، الكويت ١٩٩٩، ص٤٥-٤٨.

الصوفيين ابي الحسن علي بن عبد الكافي لمسافرين مروا عليهم بزاويته ناحية صفاقس " انزلوا يا فرسان على بركة الله وكلوا طعام الزاوية " يعني هنا طعام الصوفيين ويقول " ما لكم لا تأكلون من طعام البركة " أي أصبح الصوفيون يسيطرون حتى على الواردين والوافدين على البلاد الحفصية من حيث استضافتهم وإطعامهم[١] وتأمين طريقهم ورد أموالهم المسلوبة منهم على أيدي الأعراب[٢]

وظهرت للصوفيين كرامات[♦♦] جعلت السلطة والعامة تتقرب منهم وسيطروا سيطرة كاريزماتية على جميع طوائف المجتمع، فكان الصوفي ابن أبي عمران موسى المنادي أحد الأولياء الصوفيين بالقيروان عندما ظهرت احدى كراماته للسلطان ابي زكرياء يحيي حيث جعل الناس يتبعون هذا السلطان وظهرت هذه الكرامات فبدأ الناس يخافونه[٣] وظهرت لهم كرامات جعلوها كوظائف دائمة لهم ظلت مرتبطة بهم طوال الفترة الحفصية مثل انزال الغيث ونمو الغرس، وظلت هذه الكرامات تتناقلها الأقوال[٤] فنجد المتصوف ابن

(١) مقديش: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠٤.

(٢) نللي سلامة: المرجع السابق، ص١٥٣.

(♦♦) الكرامات: جمع كرامة وهي لا تنفتح ولا تظهر الا لمن هو ممسك بطاعة الله تخصيصًا وتفضيلًا، وتعبيرالكرامة تعبير أدبي من لون معين غالبًا ما يكون عبارة عن حكلان مصيره تروى قصة بطل قومي أولى له صالح من القدرات ما تمكنه من تحقيق تلك الخواطر. راجع عبد الحق البادسى: المقصد الشريف، ص٣٩، الونشريسى: المعيار جـ٢، ص٣٨٧-٣٩٢.

(٣) ابن ناجي: معالم الايمان، جـ٤، ص١٤٠.

(٤) نللي سلامة: المرجع السابق، ص٣٢٣.

(*) وهنا نلاحظ مبالغات كبيرة بالنسبة للكرامات وذلك بسبب شدة الجهل الذي انتشر في

سعيد الباجي له عدة كرامات منسوبة إليه منها إشفاء المرضى بالرقية، واطلاق السجناء، وعتق العبيد، واشباع شهوات الأطفال والنساء من المأكل وغيرها، وكذلك كرامة تغيير جنس مولود(*)، فكانت الظروف الاقتصادية الصعبة في عهد التدهور ونفوذ الوزراء وضعف الحكام تسيطر على القلة والفقراء والمساكين مع تزامنها مع مجاعات وفترات جفاف فكان اللجوء الى الأولياء الصوفيين في طلب نزول الغيث(١).والمخرج الوحيد لحل تلك الأزمات التي عصفت بالمجتمع الحفصي.

وذيع صيت صوفي آخر اشتهر بكراماته هو أبو يوسف الدهاني الذي فرض وجود تخصص في نمط معين من الكرامات حسب الأولياء تقال لله رجال يغرقون الحوت من البحر ولله رجال يقبضون الدنانير من الرمال ولله رجال يركبون السباع ولله رجال إذا بكوا بكيت السماء لبكائهم موافقة لهم(٢) بل وجدت الصوفيات الحفصيات أصحاب الكرامات مثل السيدة عائشة المنوبية(٣) ولقت اهتمام وعناية من السلطان الحفصي المستنصر بن أبي زكرياء

مجتمعات تلك الفترة التي أصابها التدهور والانهيار بسبب تدهور الحالة السياسية للبلاد ثم الاقتصادية حيث كان الصوفي يقوم بنشر الكرامات بين الناس، وتتنقلها الأفواه لتصبح حقيقة بعيدة كل البعد عن الواقع.

(١) المرجع السابق، ص٣٢٣-٣٢٤.

(٢) ابن ناجي: معالم الإيمان، ج٣، ص٢٢٦.

(٣) السيدة عائشة المنوبية: هي عائشة بنت الشيخ ابو موسى عمران بن الحاج المنوبي وأمها فاطمة بنت عبد السميع ومولدها بقيرية منوبة غربي تونس، نشأت في حجر أبيها واعتنى بتربيتها، فعلمها القرآن وأحسنت حفظه، ثم لاحت عليها علامات الزهد والتصوف والصلاح وقيل ظلت على عزوبيتها ولم تتزوج وقيل تزوجت وكان شأنها العبادة وغزل الصوف وأخذ الصوفية

الحفصي وزرائه فكان لها تأثيرًا اجتماعي ونفوذ عظيم على الناس ليست كراماتها الاجتماعية الخارقة منها اغاثة المسافرين وفك الأسرى وانزال الغيث وتأمن من لجأ اليها على حياته وغيرها[١] وبلغت الخرافات مداها وعلاقاتها بالسلطان المستنصر الحفصي حيث اشترطت أن يزورها هو ووزراؤه حافة القدمين، فهبط السلطان من القصبة حافيًا مثل ما قالت له ولما ورد عليها قالت له والله لو جئتنا بنعال في رجلك لقطعنا ظهرك[٢].

ولم يكن الصوفيون مقبولين من جميع فئات الشعب أو السلطة الحاكمة حيث كان أحد وزراء السلطان الحفصي المستنصر يضمر الكره والعداء للمتصوف والورع غيث الحكيمي من أولياء القيروان، فشكى ذلك إلى الولي الصوفي أبو علي سالم القديري، فأرسل في طلب هذا الوزير فلما وصل الى باب الزاوية، نزل عن ظهر جواده، ومشى على قدميه حتى وصل الشيخ وتمرغ على قدميه وقال له يا سيدي ما حاجتك ومعتقدك عامل على زيارتك، نعم ما تأمرني به بالسمع والطاعة[٣] وتسرب التيار الصوفي الى صفوف العلماء المحافظين غير أن هؤلاء أنفسهم لم يفرطوا في مواقعه، وكثرا ما شجبوا أعمال

عن الشيخ الصوفي الجليل الامام حسن الشاذلي: راجع حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات تونسيات، ص١١٧-١١٨، نللي سلامة: المرجع السابق، ص٣٣١.

(١) نللي سلامة: المرجع السابق، ص٣٣٣-٣٣٦.

(٢) نيللي سلامة: المرجع السابق، ص٢٦٥-٢٢٦ وهنا نجد شيئًا من المبالغة من جانب تلك الكرامات فكيف ينزل السلطان و وزراؤه حفاة من أجل أحد الأولياء الصوفيين، وكيف يقبل ذلك السلطان و وزراؤه ذلك، فهنا نجد أن مناقب السيد السيدة المنوبية قد يكون لها مبالغات منها هذه القصة،

(٣) ابن ناجي: معالم الايمان، جـ٤، ص٣٦.

السحر والشعوذة والوهم، و وقف العلماء موقف محترز من سلوكيات المتصوفة بالرباطات والزوايا شاجبين البدع المنتشرة من سماع وغناء ورقص وكرامة ولباس المرقعة، رغم اعتقاد السلاطين والوزراء وبعض العلماء من صحة بعض الممارسات الوهمية للمتصوفة، فأنهم استنكروا تلك البدع والكرامات[١] حتى العلماء انقسموا على أنفسهم ولم يستطيعوا أن يقفوا موقفًا موحدا تجاه الصوفيين الذين ازداد واستفحل نفوذهم أبان الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وهيمنة الاقطاع المرتجع على شتى مظاهر الحياة، واختلفوا في مسألة السماع، فأعتبره البعض مباحًا لكونه غذاء روحيًا، وشجبته الأغلبية، ورأت أنه في حكم المكروه أو المحظور[٢].

وكان النساء يقبلن على المتصوفة في مسجد الصفصافة وزوايا تونس من الداواه والرقي، مما وجه للصوفيين العيب والنقد الشديد من الفقهاء، فرد عليه المتصوفة بتداوي النساء على يد طبيب نصراني بتونس دون حرج[٣] واكتظت حلقات الصوفين بكثير من المشعوذين والمندسين الذين يتظاهرون بالبكاء والانزعاج لأغراض خبيثة من أنفسهم، ومع ذلك وجد البعض أن هذا النحيب متنفس لمشاكله الشخصية ومعاناته الخاصة[٤] بالإضافة أصبحت

(١) البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص٢٧١-٢٧٣.

(٢) المصدر السابق، جـ٦، ص٤٠٧-٤٠٨.

(٣) المصدر السابق، جـ٦، ص٤٤٣-٤٤٤، ص٤٠٨-٤٠٩، محمد حسن: المدينة والبادية: جـ٢، ص٧٤٩. وهنا نجد ماوصلت إليه الحالة المتردية للحياة الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع الحفصي حيث الإقبال الشديد من النساء على المتصوفين مما أدى بالتأكيد إلى انتشار الفاحشة والرذيلة بين هذه الفئات مما جعل المتصوفة يردون على رجال الدين.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ٢، ص٧٥٢.

أماكن تواجد الصوفيين من زوايا ورباطات في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين ملجأ الى الجناة والتوازن ومستغرقي الذمة والهاربين من السلطة الحفصية[١] وأصبحت مصدرا للخرافات ومبعثًا للأوهام وتخديرًا للعقل وإفناء للإرادة في مهب الرياح بضعفه وأن له رزقًا مقدرًا لا يعود و يصل اليه بدون سعي و الشيخ هو طبيب النفس ومصلحها حيا وميتا[٢] على الرغم من الصوفية لعبوا دروا هاما في الجهاد ضد النصارى وضد هجمات العدو على البلاد، فكان الصوفي هو الجيش للحماس الديني[٣] وظلوا يقاتلون ومعهم العامة بجانب الجيش الحفصي بقيادة الوزراء الحفصيين ضد حملة لويس التاسع على أفريقية حتى وقع الصلح بين المستنصر بالله وبين النصارى[٤] كما كان للصوفيين مرتبة عليا كمصدر مشروعية للحكم حيث تقرب اليهم السلاطين والوزراء لأخطاء الشروعية للسلطة السياسية وهذا ما فعله الداعي ابي عمارة عندما استولى على تونس حيث كان يتظاهر بمعرفة الرجال الصوفيين الصالحين كالمرجاني والزبيدي الجلاسي[٥].

وهنا لعب الصوفيون دورًا تاريخيا هاما للسلاطين الحفصيين والوزراء من حيث اعطاء المشروعية تجسدها حركة المهدى ابن تومرت وعقيدته وهذا يبين

(١) الونشريسي: المعيار، جـ٣ ص١١٢، ١١٣، ٢٠٠.

(٢) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص٢٠٩-٢١٠.

(٣) ابن ناجي: معالم الإيمان: جـ٦، ص٦٩، رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٣٠، عبد الكريم الكريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لاهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، الناشر شركة الطبع والنشر الدار البيضاء، المغرب،١٩٧٧،ص٧٥.

(٤) ابن دينار: المصدر السابق: ص١٥٩،١٥٨، ابن ناجي: معالم الايمان، جـ٤، ص٢٥-٢٦.

(٥) نللي سلامة: المرجع السابق، ص٢٧٩.

لنا ولو جزئيًا سياسة السلاطين والوزراء الحفصيين اتجاه الصوفيين وأوليائهم والسعي الدائم الى كسب ودهم ومراضاتهم وتوظيف الولاية لأهداف وتحركات سياسية محددة، فنجد السلطان المستنصر الحفصي يطلب أحد المتصوفين بحضور الصلح فرفض وامتنع عن الشهادة على الصلح[١] وهذا يبين لنا دور الصوفية السياسي وسيطرتهم على السلاطين و وزراؤهم، وما يشبه من زيادة نفوذ الصوفية على نفوذ الوزراء من ناحية اختيار ولي العهد والسلطان الجديد على الرغم من قوة نفوذهم ابان فترات ضعف السلاطين[٢].

فهذا يعتبر دلالة قوية من أجل تدعيم مشروعية السلطان وارتفاع شأن الصوفية، حيث أرسل السلاطين الحفصيون المتصوفين كسفراء الى الدول الأخرى، مثلما أرسل السلطان ابو يحيي الشيخ الصالح الصوفي الزبيدي ابن ابي تاشفين عبد الرحمن صاحب تلمسان من أجل الصلح بينهما[٣] وكذلك أرسل الصوفي يوسف بن يعقوب الملاري الى تلمسان لاقامة الصلح بينه وبين أبو حمو[٤] وظل تقدير السلاطين الأقوياء و وزراؤهم موجودًا فكان يقبل السلاطين شفاعتهم، وهنا عندما حاصر السلطان أبو فارس عبد العزيز و وزراؤه طرابلس سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٠٠م، واستطاع الاستيلاء على المدينة ورفع الحصار بعد أن تشفع له الصوفيون بالمدينة واستولى عليها هو و وزراؤه برغبة

(١) ابن القنفذ:- الفارسية، ص١٣٢؛ الغبريني: عنوان الدراية، ص١١٦، ١١٨.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص٥٣-٥٤؛ ابن القنفذ: الفارسية، ص١٥٢.

(٣) الزركشي: المصدر السابق:-ص٦٨، ابن بطوطة: الرحلة: جـ١، ص١٥٧-١٥٨.

(٤) ابن القنفذ: أنس الفقير، ص٥٣، نللي سلامة: المرجع السابق، ص٢٨١.

أهلها وصلحائها[١].

واستطاع الصوفيون في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين أن تضفي صيغة روحية أدنى مما كانت عليه في الأصل وبعدت عن أصولها ونشأتها الأولى بسبب دخول العوام الحركة وتغلغهم فيها[٢] وهكذا نجد أن الصوفيين استطاعوا من التأثير في شتى مجالات المجتمع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وذلك بفضل المتصوفين العظماء الأوائل الذين تمسكوا بأصول الصوفية وطرقها بعيدًا عن الأهواء والميول الذاتية، فسيطروا على السلاطين الوزراء والقبائل والعامة بكراماتهم التي تتداولها فيما بينهم وكانت لهم ايجابيات في المجتمع الحفصي على شتى الأصعدة، على الرغم من انتشار البدع والخرافات والخزعبلات والأساطير بينهم ونشروها بين فئات المجتمع من أجل حماية أنفسهم وأتباعهم.

فظهرت حركة ادعياء التصوف وتعددت الطوائف الصوفية[٣] فتسرب اليهم الانحرافات والشذوذ بعد القرن الثامن الهجري واندساس الأدعياء في الزوايا والرباطات مما أدى الى انتحال الكثيرين من الصوفية معاني السحر و الجاذبية والسيطرة على معتقدات الناس[٤] وميز ابن خلدون بين المتصوفة ومدعي التصوف و وصفهم بأنهم قوم بهاليل معتوهين أشبه

(١) الزركشي: المصدر السابق: ص٢٠٠.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق:- جـ٢، ص٤٦٤.

(٣) محمد القبلي: الدولة والولاية، ص١٠٠.

(٤) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص٢٦، عبد العزيز بن عبد الله: معطيات الحضارة، ج١، ص١٥٥.

بمجانين من العقلاء[١] فقام علماء وفقهاء تونس بمعارضتهم وانتقادهم[٢] وعارض الفقهاء هذا اللون من البدع التي أحدثها هؤلاء الدراويش البهاليل، وانتشرت بين البوادي حيث الجهالة وظروف المعيشة الصعبة فكانت ثرية خصبة للانحراف[٣] فسيطروا على عقول الناس وتعظيمهم[٤] انما نسبة لا تقسم من كرامات لا يعتقدها العقل البشري[٥]

وأصبح كل جاهل في فترات نفوذ الوزراء يود أن يكون صوفيا بدعوي أنها ليست هناك حاجة لدراسة العقيدة، لأن روح القدس تمنح معرفة الحقيقة لكل من كان له قلب طاهر واستنادًا لمزاعم أخرى ليست لها قيمة كبيرة، ولهذا السبب تحلى الصوفيون عن كل أحكام الاسلام وعن واجباته ونوافله ولم يعودوا يتقيدوا بتغيير الطقوس المعهودة عند شيوخهم وراحوا يبيحون لأنفسهم كل المتع التي تعتبرها مراجعتهم مشروعة[٦] وازدادت بينهم عمليات الغناء والرقص[٧] وكثروا من شرب الحشيش مدعين أن ذلك يزيد

(١) ابن خلدون: العبر، مج١، ص٩٣.

(٢) البرزلي: فتاوى، ج٦، ص٢٧١، عبد العزيز عبد الله؛ معطيات الحضارة، ج١، ص١٤٩.

(٣) ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج٢، ص١٨٩، رشا سالم: المرجع السابق: ص٣٤٠

(٤) مرمول كاربخال: أفريقيا، ج٣، ص٢٣.

(٥) الزموري: بهجة المناظرين، ورقة ٥، ٩٤؛ ابراهيم القادري: الاسلام السري، ص١٤٣

(٦) الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٧٠، إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ جـ٢، ص١٨٨، سعد الغراب: العامل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية، للنشر، ط٢ تونس، ١٩٩٠، ص١٨٤-١٨٥ هامش.

(٧) الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٦٩.

من حماستهم عند قيامهم بالأذكار الصوفية[١] وكثرت بدعهم وزادت الفتاوى والكتب ضدها ومقاومتها والقضاء عليها[٢] وأصدرت فتاوى تنص على عدم جواز إمامه شيخ منهم ولا شهادته، وتسلطوا على أموال الناس بالباطل يرقصون ويغنون واهمين الناس أن ما يفعلونه يقربهم الى الله، وأن ذلك هو طريق الصالحين وظلوا يضللون الناس بذلك[٣] مما جعل الفقهاء يجعلون الأحباس عليهم باطلة ولا يصح التحبيس عليهم[٤] ومن الصوفيين من خالط النساء معهم في زواياهم يغنون ويتمايلون ليس لهم ذكر ولا عبادة سوى بطونهم ويتحلون بالحديد ويحلقون لحاهم ولا يفهم كلامهم وقاموا بالأعمال الباطلة التي انتشرت في المجتمع المحيط بهم أمام السلطة الحفصية الضعيفة من الوزراء المستبدين والسلاطين المغلوب على أمرهم[٥].

الوزراء والآفات الاجتماعية

لقد كان للوزراء المستبدين والسلاطين الضعفاء دور كبير في قام الثورات الاجتماعية ضد السلطة الحفصية الهشة، فعملت تلك الصراعات والثورات على خلخلة المجتمع الحفصي، وأدت الى انهيار هذا المجتمع الذي يتميز بالقوة والتماسك الأخلاقي أبان الأطوار الحفصية المزدهرة وسلاطينهم العظماء الذي

(١) محمد الشريف: سبتة الاسلامية، ص١٥١، رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٤١.

(٢) محمد المنوني: التيارات الفكرية في المغرب، مجلة الثقافة المغربية، عدد ه، ١٩٧١، ص١٠١-١٠٤.

(٣) الونشريسى: المعيار، جـ٧، ص١١٧.

(٤) المصدر السابق، جـ٧، ص١١٨.

(٥) البرزلي: فتاوى، جـ٢، ص ٤٢٦.

سيطروا على البلاد وعلى الثورات بيد من حديد، ولكن عندما زادت الفتن والثورات وضعف السلاطين الحفصيين، وسيطر الوزراء على مقاليد الأمور وتوجيه الأحداث ظهرت أزمات وآفات انعكست على المجتمع الحفصي فانعكست على أفراده بوضوح منها:

انهيار وتفكك الأسرة الحفصية:

انعكست ظروف المجتمع السياسي الحفصي على الاسرة الحفصية حيث انهارت المثل والقيم بداخلها وظهرت بكل وضوح ابان فترات سيطرة الوزراء وضعف الدولة، حيث تعددت المشكلات الأسرية التي تعرضت لها كتب النوازل، حيث خرج الرجال للحروب الداخلية أو الخارجية وغاب عن زوجته لفترات طويلة دون أن يعرف عنهم أية أخبار، مما جعلها تلجأ الى القضاء من أجل الطلاق[١] ثم تطلق نفسها بأمر من القاضي وتتزوج بآخر، ولكن تكون المشكلة عندما يعود الزوج الأول ويطلب زوجته[٢] وظهرت في المجتمع الحفصي امرأة تجمع بين زوجين دون الالتزام بالدين الإسلامي وتحريم الزوجة الجمع بين الزوجين[٣] وانتشرت حالات البغاء والفجور فنجد من نساء يدعون الرجال أصحاب الفسق للهو إلى بيتهن لممارسة الرزيلة[٤] وانتشرت عمليات الاغتصاب بين الفتيات، فتزكر النوازل أن فتاة تزوجت ثم

(١) الونشريسى: المعيار، جـ٣، ص١١٢، جـ٤، ص١٩،٣٩

(٢) المصدر السابق: جـ٣، ص٣٧، جـ٤، ص١٩.

(٣) المصدر السابق: جـ٢، ص٤٣٠-٤٣١.

(٤) المصدر السابق: جـ٤، ص٣١٥-٣١٦، كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب، ص٥٣-٥٤.

اكتشف زوجها أنها ثيبًا وليست بكر، فتعترف بأنه تم اغتصابها كرهًا[١] وانتشرت بيوت الفجور حيث اتخذت بعض النساء بيوتهن أوكارا للرزيلة والفجور مقابل مبلغ معين من المال يدفعه الرجال مقابل الاستمتاع[٢].

وكثرت عمليات السحاق بين النساء أبان فترات الضعف واستبداد الوزراء، مما جعل الفقهاء يقرون بجلدهما مائة جلدة إذا ثبت ذلك[٣] واستمرت عمليات الاغتصاب مع تردي الأحوال السياسية والاقتصادية، فنجد فتيات تم اغتصابهن كرهًا[٤] واعترفن بفقدان بكارتهن واغتصابهن بكل جرأة وسهولة دون حياء أو وازع ديني يردهن عن الرزيلة[٥] وزاد هروب النساء والبنات مع عشاقهن الى مناطق أخرى بعيدًا عن مساكنهم قد يكون في جبالا او أماكن نائية[٦] وتخبرنا كتب النوازل عن فتاة تهب من بيت والدها لاقامة علاقة آثمة مع رجل غريب ولا يستطيع الأب أن يسيطر على أسرته مما ساعد على انهيار الأسرة في فترات الانحطاط والتدهور، فيقوم الوالد بحجزها في البيت يتركها تحيض ثلاث مرات وبعدها يزوجها من الرجل الذي عاشرها

(١) المصدر السابق:جـ٣، ص١٦٦-١٦٧، العلمي: المصدر السابق، جـ١، ص٩٤

(٢) كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب ص٥٣-٥٤

(٣) البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص١٥٩.

(٤) الونشريسى: المعيار، جـ٣، ص١٣١، جـ١٠، ص٢٣٠.

(٥) الونشريسى: المعيار، جـ٩، ص٢٣٨، ٥٣٧.

(٦) مرمول كربخال: افريقيا، جـ٢، ص٢٥٢، البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص١٦٥، العلمي: المصدرالسابق: جـ١، ص١٠٣.

سرًا[١] فانتشر الزنا بين أرجاء المجتمع وتدنت أخلاق الناس[٢].

ومع استمرار تخبط الأمر والأوضاع السياسية وانعكاس ذلك على أخلاق المجتمع التي أخذت في الانهيار، نجد هناك رجال دين يأخذون الرشاوي من أهل الفسق والفجور من أجل فتوى برد المطلقة ثلاثا في طلقة واحدة، مما التف الناس الجاهلون من حوله لأخذ فتواه والعمل بها على الرغم من أنها باطلة[٣] وظهرت بعض القضايا الخطيرة وهي زنا المحارم فتعرضت كتب النوازل لمثل هذه الأمراض الاجتماعية الخطيرة وهي زنا المحارم فتعرضت كتب النوازل لمثل هذه الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي تجعل الأسرة في طريق الباطل، حيث نجد أن الأم تهوى الى ابنها، فتتعرض له في الظلام حتى يطئها وتحمل منه وتضع أنثى وتربيها وتستمر في عمل أوقح من السابق حيث تزوج هذه البنت الى ابنها فتصيره الزوجه هي أخته وابنته من هذه الأم الآثمة[٤] ولا ننكر دور اليهود في انتشار الزنا في مناطق عديدة في بلاد المغرب[٥].

كما انتشرت في تونس في العهد الحفصي ابان فترات نفوذ الوزراء وضعف سلطة السلطان بيوت تمارس فيها الرزيلة والبغاء بأسعار محددة، وصارت هؤلاء النسوة يستمدن حمايتهن من قبل السلطة الضعيفة قد يكون صاحب

(١) الونشريسى: المعيار، جـ٥، ص٣٤٧، البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص١٤٢.
(٢) البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص١٦١.
(٣) الونشريسى: المعيار، جـ٥، ص١٢٠، برنشفيك: المرجع السابق،جـ٢، ص١٧٧
(٤) المصدر السابق: جـ٤، ص٤٧٥.
(٥) عطا ابو رية: اليهود في المغرب، ص١٠٠.

الشرطة أو حاكم المدينة بل صار بعض الرجال يمارسون مهنة التباغين معهم نساء ساقطات في بيوتهن خمر للبيع وصار أي شخص يمكنه الذهاب إلى هؤلاء الرجال لاستمتاع بتلك المنكرات بكل طمأنينة في ظل غياب سلطة قوية تستطيع أن تقضي على هذه المنكرات[١] على العكس من فترات السلاطين الأقوياء تعقبوا هؤلاء العاهرات وشدد عليها وقاموا بعقابهم وأحيانا اابعادهم عن المدينة[٢].

وفي أطوار قوة الدولة وسلطانها نجدهم يقومون ووزراؤهم بهدم الأماكن التي كنت تمارس فيها الرزيلة وتشرب فيها الخمور وتحويلها الى مساجد للصلاة والتدريس بدلا من العصيان والفجور المنتشر في المدينة[٣] في حين انتشرت عادة شرب الخمر وانتشر معها البغاء والرزيلة في عهد نفوذ الوزراء وساعدهم على ذلك الوزراء الذين كان هدفهم الأول الحصول على الأموال بشتى الطرق المشروعة والغير مشروعة وباقي رجال الدولة لا يحركون ساكنا طالما هذه الفنادق تجلب إليهم الأموال[٤] ومع تدهور الأوضاع ظلت عمليات الفجور والزنا ولفساد منتشرة رغم مواقف الفقهاء المتعددة ضد هذه الأفعال الشنعاء[٥] ومع استمرار تدهور الأوضاع السياسية وانتشار الفتن والأخطار الخارجية ظلت هذه الأمراض الاجتماعية الأسرية مستمرة.

(١) الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٥-٢٥١.

(٢) الزركشي: المصدر السابق: ص١١٦.

(٣) المصدر السابق: ص١١٧.

(٤) مارمول كاربخال: أفريقيا، جـ٢، ص١٤٨.

(٥) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٥٣٣. ، العلمي: المصدر السابق، جـ١، ص٨٩، ٩٣

اللواط:

نتيجة لتدني أخلاقيات المجتمع الحفصي في فترات الانحلال والضعف حيث سيطرة واستبداد الوزراء بالحكم ظهرت على سطح المجتمع الحفصي ظاهرة اجتماعية خطيرة لا تقل عن الزنا والرزيلة، وهي اللواط وعشق الغلمان والتي ظهرت في نطاق ضيق من الخاصة وكذلك من العامة بصورة أكبر(١) حيث وجد هؤلاء الغلمان المخنثين المتشبهين بالنساء، وحذر منهم الفقهاء والمحتسبون كثيرا، وحرموا الخلوة مع هؤلاء المخنثين لأنهم مثل النساء في انتشار الفتنة والرزيلة، حيث تشبه هؤلاء المخنثين بالنساء في تطويل شعورهم ونعومة أصواتهم، ولبسوا أحيانا ملابس تشبه ملابس النساء(٢) وأصبح هؤلاء الغلمان أكثر فاحشة وأشد خطرا على المجتمع واشد فجور من النساء المحوسات للممارسة عملية اللواط(٣) وكثرا الاعتداءات على الأطفال بتونس وكثر بها اللواط في فترات الانحطاط وسيطرة الوزراء(٤).

وساعد اليهود على انتشار هذه الفاحشة في المجتمع الحفصي حيث أنهم أحبوا ممارسة الرزيلة مع الرجال وبعضهم منذ أقدم العصور(٥) وانتشرت عملية الانفاق

(١) ابراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس، ص٩٩، عطا أبو رية، المرجع السابق، ص٩٨.

(٢) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٣٧١-٣٧٣، كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب، ص٥٤ ابن عبد الرؤوف: رسالة في الحسبة، ص١٢٢

(٣) الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٥٠، الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٥٠٧،٤٠٩، ٥٠٨،.

(٤) برنشفيك: مرجع السابق، جـ٢، ص١٧٧-١٧٨.

(٥) ذكي شنودة: المجتمع اليهودي، ص٤٠٠، رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٥٢

على الغلمان المرد وتربيتهم داخل البيوت من اجل المتعة الباطلة وعدم الانفاق في سبيل الخير مهما كلفهم ذلك من أموال طائلة[١] وقام المختثون بتزييف النقود الحفصية، مما جعل القضاة يفرضون عليهم العقاب بحلق رؤسهم وتغيير ثيابهم بثياب خشنة كزي الرجال كما أمروا آباءهم بحبسهم كعقاب لهم من أجل استقرار المجتمع[٢] ونجد أنه في فترات قوة الدولة وسيطرة السلاطين على أمور الحكم يأمرون وزراءهم بطرد لمختثين الى خارج البلاد، فبذكر الذركشي أن السلطان أبا فارس عبد العزيز قد أمر وزراءه بطرد المختثين عن البلاد لما بلغه عنه من عمل المناكر[٣] حيث بادر بتطهير العاصمة منهم فقطع شملهم وصدع جمعهم ولم تنم له عين حتى قام وزراؤه بتنفيذ سياسته في البلاد[٤].

الغش والسرقة والسحر والتنجيم:

كان للأوضاع السيئة في فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين وانهيار النظام الأمني في البلاد الحفصية دور كبير في انتشار حوادث السرقة بالإكراه وقطع الطرق ابان تلك الفترات، حيث كان اللصوص يخترون الأوقات التي يقل فيها الناس فلا يراهم أحد مثل يوم الجمعة وقت صلاة الجمعة[٥]

(١) الونشريسى: المعيار، جـ١٢، ص٣٧٢.

(٢) الونشريسى: المعيار، جـ٨، ص٢٥٨، كمال ابو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب، ص٥٤.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٧.

(٤) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص١٤٤.

(٥) ابن مريم: البستان، ص٨٣-٨٤، عبد الله حسين: مظاهر الحضارة في دولة بني عبدالواد، ص٢٨٨.

ويقومون بالهجوم على المجاشر[١] وسرقوا ما فيه وأقدموا على قتل رجل من أهل المجشر وتمكنت السلطات من من القبض على بعضهم واقتصت منهم، بينما تمكن الآخرون من الفرار[٢] وخاف الناس على أموالهم من النهب السرقة فكانوا يضطرون الى وضعها امانة في يد من يدافع عنها حتى يزول الخطر والخوف من اللصوص ثم يستردوها اوقات الأمان وقوة السلاطين الذين كانوا يضربون على أيدي المفسدين بيد من حديد[٣] واستطاع اللصوص من التحرك بقدر كبير في فترات نفوذ الورزاء حيث انتشر قطاع الطرق والمفسدون في الأرض وينهبون أموال وبضائع المسافرين والتجار[٤]

وقام الأعراب بمهاجمة القوافل التجارية والمسافرين عبر الطرق التجارية واغتصبوا أموالهم والتعامل بالحرام فظهرت المفاسد، والمعاصي والفجور مع ضعف واضح من السلاطين والوزراء المستبدين[٥] ولكنهم في أوقات قوة الدولة وسلاطينهم، فكانوا يأمرون الوزراء بمحاربة هؤلاء الأعراب وقطاع الطرق حيث حق الفقهاء على مثلهم درءًا لشرهم ومفاسدهم والاخلال

(١) المجشر: يعني عند المغاربة والأندلسيون الضيهة أو المزرعة، وقد يعني موضع الزراعة والرعي معا ، راجع ابن خلدون، العبر، مجـ٧، جـ١٣، ص١٥٧، القلقشندي: صح الأعشى، جـ٥،ص٢٠٥، عبد الله بن منصوب: قبائل المغرب، جـ١ هامش ص٢٨٠، عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ١٤٨ هامش.

(٢) الونشريسى: المعيار، حـ٢، ص٤٠٢.

(٣) المصدر السابق: جـ٩، ص٨٨.

(٤) المصدر السابق: جـ٢، ص٥٢٨؛ العبدري: المصدر السابق، ص٢٥٨، برنشفيك: المرجع السابق: جـ٢، ص١٦٥.

(٥) الونشريسى: المعيار، جـ١، ص٤٢٣.

بالوضع الاجتماعي للدولة[١] وكان هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق يسكنون المناطق الجبلية والبوادي والقرى النائية البعيدة عن الحواضر[٢] منهم أشد خطرًا وأعظمهم ضررًا وأكثرهم جرأة وأقلهم حياء ومروؤه، ولا يعفون عن ابن السبيل ولا أوضع منهم نفوسًا[٣]

وانتشرت حالات الغش في البيع والشراء بشكل كبير ابان فترات نفوذ الوزراء والاستبداد بالسلاطين الذي لم يحركوا ساكنا من قريب أو من بعيد فظهرت عملية الغش في المكيال وتزييفه[٤]، وخلط الناس السلع الصالحة بالسلع الخبيثة من أجل المكاسب الكثيرة[٥]، وقام الكثير في الأسواق بالغش في الميزان عند بيع الدقيق والخبز وغيرها من السلع[٦] وباع الناس بضائع معابة دون أن يذكر للمشتري عيوبها، ولا يكتشف الشاري عيوب البضاعة الا بعد فوات الأوان ولا يستطيع ردها للبائع لأنه معروف أن البائع انكر العيوب لبضاعته فكيف يقبلها بعد أن انكشف بيعها، فتسلم المشتري بالأمر وبأخذ البضاعة المعابة[٧] على العكس في فترات قوة السلاطين فنجد أن السلطان يأمر وزراؤه الضرب على أيدي الغشاشين للكيل والميزان، حيث كانوا يقبض

(١) المصدر السابق: جـ٦، ص١٥٣، ١٥٦

(٢) العبدري: المصدر السابق، ص٢٧٨؛ ابن خلدون: العبر، مجـ٧، جـ١٣، ص٩٩؛ ابن مريم: البستان، ص٨٤، كمال ابو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية، ص٥١.

(٣) العبدري: المصدر السابق، ص٢٧٨.

(٤) البرزلي: فتاوى، جـ٣، ص١٥٢.

(٥) نفس المصدر السابق والجزء، ص١٨٤.

(٦) نفس المصدر السابق و الجزء، ص١٩٧.

(٧) رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٥٣، مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية، ص٢٢٦.

عليهم ويزح بهم في السجون ولا يرضخ السلطان القوي لأي واسطة من أجل الافراج عن الغشاشين للميزان[١].

كما كان لاستبداد الوزراء بالحكم دون السلاطين الحفصيين الضعفاء وازدياد حركات التمرد والعصبية والصراع على الحكم انتشرت عمليات السحر[٢] والتنجيم داخل المجتمع الحفصي، حيث وجدت التربة الحفصية الخصبة لنمو تلك الأفكار والظواهر للتعبير عن خفايا المجتمع ومشاكل الطبقات الفقيرة التي تحاول أن تهرب من دوامة الصراع والحروب ومن أجل عمل توازن اجتماعي اقتصادي للمجتمع الحفصي[٣] وربط الشعوذة والسحر بالعجز عن المعاش حياة طبيعية عن طريق الحرف والصناعات المختلفة وارتبط السحر والشعوذة بالحياة السياسية والعجز عن مواجهة ظلم الوزراء المستبدين والحكام الضعاف[٤] كما كان للصوفيين دورهم في عمليات السحر والشعوذة من أجل السيطرة على المجتمع[٥] فظهرت بعض الفرق الصوفية الشاذة تستخدم اساليب الشعوذة والسحر وظهور كرامات خارقة تداولها فيما

---

١) البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص١٥٠.

(٢) السحر ضربا من الخيالات، ويطلق على عدة معان كالفساد والخداع، واصطلاحيًا يطلق لى كل ما يطلق دون مأخذة وخفي سببه. راجع: الشماخي: السير، ص٣٣، ابو ياسر الجزائري: العلم والعلماء، ص٩٣

(٣) ابن مريم: البستان، ص٧٧-٧٩، ابراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس، ص١١٤

(٤) ابن مريم: البستان، ص١٣٨-١٣٩.

(٥) زاهر رياض: شمال افريقيا، ص١٦٣، عبد الله أحمد حسين: المرجع السابق، ص٢٩١.

بينهم[١].

ظاهرة شرب الحشيش والتبغ:

كان انتشار ظاهرة شرب الحشيش[٢] والتبغ من العادات السيئة في شمال أفريقيا في بداية القرن السابع الهجري الرابع عشر الميلادي[٣] وانتشرت بصورة أكبر في تونس الحفصية مع هجرة اليهود من الأندلس ومعهم زاد الإقبال على التبغ إما بالتدخين أو النشوق[٤] ومع سيطرة الوزراء واستبدادهم وكثرة الفتن والثورات وتدني المستوى الأخلاقي، حيث انتشر بين طبقات المجتمع المختلفة التي يسود بينهما الجهل، فاستعملوا الأعشاب الخبيثة في الأنف ويسمونه طابقوا الغبار طابة ولكن الفقهاء حرموا استخدام ذلك التداوي لأنه نجس ويدخل في تصنيعه كل ما هو نجس كالبول ودهن الخنزير

(١) البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص٢٧٢، الونشريس: المعيار، جـ١٠، ص١٥١.

(٢) الحشيش: يحتمل اشتقاقها من كلمة شيش العبرية ومعناها فرح، وذلك نسبة الى تأثيره المفرح، والحشيش هو لاسم العربي لنبات القنب الهندي، عرفه المصريون واليونانيون والصينيون، ويقال أنه عرف أولا في آسيا ثم انتقل الى أفريقيا وانتشر فى جميع المجتمعات الأفريقية، راجع: الوزان، وصف أفريقيا، ص٢٤٠ ؛ سيد المغربي، ظاهرة تعاطي الحشيش دراسة نفسية اجتماعية، دار المعارف، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٠، ١٩٩٦، ص٤١-٥٢.

(٣) العلمي: المصدر السابق، جـ٣، ص٣٨، عطا أبو رية: اليهود في المغرب، ص٩٦، مصطفى شوقي: المخدرات والمجتمع نظرة متكاملة، عالم المعرفة، الكويت عدد ٢٠٥، ١٩٩٦، ص٤٦.

(٤) العلمي: المصدر السابق، جـ٣، ص٢٠٨-٢٠٩، صالح فياض: دولة بني وطاس، ص١١٩-١٢٠.

وغيره[١] واستخدم الحشيش في تونس الحفصية كمادة منبهةوغير مسكرة وكان سعرها غاليًا جدًا[٢] كما استعمل الأفيون كمادة مخدرة ولكن يبدو أن استعمالها كان ذات هدف طبي[٣].

وانتشر شرب الحشيش والتبغ بسفلة القوم وأماكن وجود البغاة والمفسدين وكذلك أماكن تواجد اليهود[٤] الذين فضلوا شرب وتعاطي الحشيش على شرب الخمر[٥] حيث كان التجار الأوروبيون يأتون بالتبغ والحشائش وأشياء أخرى محرمة الى تونس الحفصية والتجارة فيها وذلك أبان فترات نفوذ الوزراء[٦]

مما دفع الفقهاء ورجال الدين يقومون بإصدار الفتاوى وللقضاء على ظاهرة استعمال التبغ والحشيش والتخلص منها ومن جذورها نهائيًا[٧]

شرب الخمور:

انتشرت عادة شرب الخمر المصنع من العنب الطازج في البلاد الحفصية،

(١) العلمي: المصدر السابق، جـ٣، ص٢٠٦-٢٠٧، ٢١٠.

(٢) الوزان: وصف أفريقيا، برنشفيك: المرجع السابق، ص٢٨٨.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ص٢٨٨.

(٤) العلمي: المصدر السابق: جـ٣، ص٢٠٨.

(٥) المقري: نفح الطيب، جـ٥، ص٢٤٧، محمد الشريف: سبتة الاسلامية، ص١٥١

(٦) زينب كرير: أهل الذمة في الدولة الحفصية، ص ، سامية مسعد: المغاربة ودورهم الثقافي، ص٢٨

(٧) العلمي: المدر السابق، جـ٣، ص٢٠٨-٢١٠، عطا رية: اليهود في المغرب، ص٩٦، صالح فياض: المرجع السابق، ص١٢٠.

openkandi.com

فأنه لم يكن ممنوعًا تمامًا بالرغم من تحريمه بتنصيص التعاليم القرآنية وانتشرت هذه العادة في الوسط الارستقراطي وكان اليهود والنصارى يقومون بالتجارة في الخمور بأنواعها المختلفة،فكانوا يشربونه في المناسبات الخاصة أو وجباتهم اليومية[١] ونجد أن المجتمع الحفصي في عهد قوة السلاطين كان لا يتناول الخمور الا بنسبة بسيطة بسبب الشريعة الإسلامية[٢] وكان الفقهاء يشددون في التجارة بها.

ولكن في فترات نفوذ الوزراء اشترك بعض المسلمين في عمليات صناعة وبيع الخمور على الرغم من تحريم الدين لها[٣] ومع تواجد اليهود لابد من تواجد الخمور على الرغم أنهم نظروا إليها على أنها خطيئة أعمال الشياطين[٤]

وارتبط انتشار الخمور بقوة السلطان وضعفه، فاذا كان السلطان قويا ومسيطرا على جميع أمور الدولة يمنع انتشار الخمور داخل البلاد وهذا ما فعله السلطان ابو عمرو عثمان عندما قام بهدم الفندق الذي كان يشرب فيه الخمر وقام ببناء زاوية ومسجد لإقامة الشعائر الإسلامية[٥] وهناك من السلاطين الأقوياء من يحجر بيع الخمور ويأمر وزراؤه بغلق الخمارات التي يتناول فيها

(١) البرزلي: فتاوى، جـ، ص ، العلمي: النوازل، جـ١، ص٣٦٦-٣٦٧

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٨٦.

(٣) العلمي: المصدر السابق، جـ٣، ص٢٠٦، البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص٣٣٩-٣٤٢، ٣٥١-٣٥٣

(٤) Franz rosen: the Jewish foundation of islam , New york p.١٢٢

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٦.

الفجار الخمر[١] على العكس من فترات استبداد الوزراء وضعف السلاطين فيباع الخمر من طرف اليهود والنصارى الى المسلمين عانية، فكانوا يستأجرون المخازن من المسلمين لتخزين وبيع الخمور مقابل مبلغ من المال يدفعها يوميًا أو كل عام[٢] وكانت الأماكن التي يجتمع فيها السكاري في قسنطينة وتونس والقيروان معروفة من العامة والخاصة[٣].

وكانت القيروان من أنشط المدن استيرادًا للخمور من صقلية في العهد الحفصي عن طريق سوسة ونشطت أبان نفوذ الوزراء حيث سمح السلطان الحفصي ووزراؤه لليهود والمسيحيين بنقل وبيع الخمر، مقابل مبلغ مالي كبير، ورغم شكوى الفقهاء واحتجاجاتهم، لم يترد السلطان و وزراؤه في هذا القرار، مما جعل العلماء أن يقاطعون محلات بيع الخمور عن طريق توعية الناس بذلك من أجل اجبار اصحاب تلك المحلات على غلقها[٤].

وأعطى السلطان الحفصي الضعيف و وزراؤه المستبدين إعفاء كافيًا تقريبًا على الخمور القادمة على تونس وبجابه مما ساعد على انتشار الخمور بين المسلمين وكان يباع لهم جملة وتجزئة الكل حسب طلبه، وانتشرت المحلات الكبيرة والصغيرة في تونس وبجابة فكان أصحاب المحلات يبيعون للجميع من أهل الذمة والمسلمين[٥]

(١) برنشيفك: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٨٧.

(٢) الدباغ: معالم الايمان، جـ٤، ص٩٢.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص، ابن القنفذ الفارسية، ص

(٤) Mas latrie: op cit p. ٢٢٤ / ٢ / ٣

(٥) Mas latrrie: op cit p. ٢١٣-٢١٤

وانتشرت صناعة الخمور عند أهل الريف وفي المنازل أيضًا[١] وعلى الرغم من فتاوى الفقهاء بتحريم بيع الكروم لمن يعصره لصناعة الخمور من اليهود والنصارى والمسلمين[٢] وحرمه الفقهاء على الشباب وعملوا على تحريم ترويج صانع وشارب الخمر لأنه سوف يدعو زوجته وأولاده إلى تناوله وصناعة الخمور[٣] مما يؤدي الى انحطاط وانحراف المجتمع وانتشار الرزيلة بين أفراده.

فهناك السلاطين الحفصيين الضعفاء و وزراؤهم المستبدون قد تمتعوا بمباهج الحياة، بسبب تكدس الأموال في خزانتهم[٤] وانغمسوا في شرب الخمر والتمتع هم و وزراؤهم بالجواري وخاصة أبان فترات الضعف والانهيار حيث نجد أن فسق الوزراء والسلاطين الى قتلهم، مثلما فعلت احدى زوجات السلطان الحفصي أبى عبد الله بن الحسن حيث قدمت له السم ومات مسمومًا عام ١٥٢٦م بسبب فسقه وفجوره مما أدى الى انهيار الحكم الحفصي حيث نادت بابنها محمد الحسن سلطانًا على البلاد[٥]

الوزراء والأشراف والاحتفالات والأعياد

عرفت البلاد الحفصية طبقة من أعلى وأنبل طبقات المجتمع ألا وهي طبقة الأشراف[٦] الذين وفدوا على بلاد المغرب من بلاد الحجاز أواخر القرن

(١) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٢٥٠ ، البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص٣٤٠-٣٤٢.

(٢) ابن الزيات: التصوف، ص١٨٠-٢٢٩، البرزلي: فتاوى جـ٦، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٣) العلمي: المصدر السابق، جـ١، ص٨٣، التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٤٠٤

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص١٥٧.

(٥) الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٥٣-٤٥٤.

(٦) الأشراف: مفردها الشريف وهو من القاب المقر والجناب فتقول: المقر شريف والجناب

الثالث عشر الميلادي وهم معروفون بالأشراف العلويين[١] وهناك الأشراف القادمون من صقلية واستقروا بسبتة وهم المعروفون بالأشراف السبتيين[٢] ثم انتشر الأشراف العلويون في بلاد المغرب الأوسط والأدنى والأقصى وقاموا بأعمال حضارية ودينية لفائدة المذهب السني[٣] وكان السلطان المستنصر الحفصي محبا للأشراف ومعظما لهم، يحب بيت الشرف، وكذلك كان وزراؤه مثله مما جعله يعجب ويقرب اليه الوزراء المحبين للأشراف ويشكرهم، وهذا يد على أن الأشراف نالوا كل الاحترام والتقدير والتعظيم من جانب السلطان المستنصر و وزراؤه[٤] وقام السلاطين العظماء ووزراؤهم بالإحسان إلى الأشراف، وظهروا على المجتمع الحفصي بفضل الحظوة التي نالوها من اولئك السلاطين و وزراؤهم[٥]،وأيضا كان السلطان أبو يحي بن أبي بكر ووزراؤه

شيف وهذا اللقب مختص بالأشراف أبناء فاطمة بنت علي رضي الله عنهما أي يراد هنا الألقاب المطلقة التي لا تلي المقر والجناب وهو فعيل من الشرف وهو العلو والرفعة ولا يكون إلا لمن له أباء يتقدمونه في الشرف وهناك أشراف يقلدون من جهة وأشراف جدد طارئون على الشمال الأفريقي واستقروا به. راجع القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦، ص١٧، قلائد الجمان: ص١٦٠-١٦١،الأنصاري:اختصار الأخبار:ص٢٧ هامش، محمد الشريف: سبتة الاسلامية، ص١٣٦؛ محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع، ص٨٤

(١) الأنصاري: اختصار الأخبار، ص٢٧ هامش، محمد الشريف: سبتة الاسلامية، ص١٣٦، محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص٨٤

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٤٢، محمد اسماعيل: المرجع السابق، ص٣٢٦.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٦٩-١٧٠

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص١٣٣

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٨٠

محبا للشرفاء ويكرمهم ويقربهم إليه ويحسن إليهم[١]

ومنذ أواخر القرن السابع الهجري أخذ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف صيغة رسمية في جميع بلاد المغرب[٢] وارتبط بالاحتفال بالرسول و تكريمه وتعظيمه ظهور الأشراف والإغداق عليهم[٣] وكانت ليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف تبدأ في يوم الثاني عشر من ربيع الأول فكان الاحتفال تعظيمًا وإجلالًا من نفوس السلاطين والوزراء وكذلك نفوس جميع السكان، فكانوا يقومون بانشاد الأشعار في المكاتب[٤] في حضور الأشراف[٥] ويقرأون التحابيس وانشاد الأبيات الشعرية التي تتضمن المدائح النبوية في جيل تشع الأنوار من الشموع والقناديل، كما كان السلاطين ووزراؤهم يكثرون من الأطعمة، ويقومون بتوزيعها على الفقراء والأشراف[٦] وكان السلاطين والوزراء يلبسون أفضل الثياب وكذلك الناس والأشراف من أجل الاحتفال بهذا اليوم العظيم[٧].

وكان السلاطين الحفصيون ووزراؤهم يمنحون الهبات والاقطاعات إلى

(١) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٦٧.

(٢) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص١٥٢-١٥٤، ابراهيم القادري: المغرب والأندلس، ص٩١ هامش.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٠.

(٤) أحمد بن عامر: الدولة الحفصية، ص٨٧.

(٥) برنشفيك: المرجع: السابق، جـ٢، ص١٧٠.

(٦) أحمد عامري: الدولة الحفصية، ص٨٧.

(٧) ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان، ص٤٨، الونشريسى: المعيار، جـ١، ص٢٧٨-٢٧٩، مختار العبادي: الاسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، الكويت، ١٩٧٩، ص٢٩.

الأشراف في الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، فأعطى السلطان أبو فارس عبد العزيز نقيب الأشراف الكثير من الهبات[١] وكان محبًا لهم حبًا شديدًا فيكرم القاطنين بالبلاد وجمع الأشراف والوافدين عليه من جميع البلاد، وجعل لهم كسوة فاخرة وكان ويعولهم وبجعل لهم رواتب واقطاعات حتى كثروا عليه بالعاصمة واستوطنوها لما شاهدوه من بر واحسان وحب من السلطان الحفصي ووزراؤه[٢]

وكان للأشراف في العهد الحفصي مكانة عظيمة لدى السلاطين الحفصيين العظماء ووزراؤهم فكان لهم لهوهم المحبوب من السلطة ولم يعترض عليهم الفقهاء، فكان لهم أشعار يتغنون بها في يوم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وكان السلاطين العظماء يساندوهم ويقدمون لهم الأبقار لذبحها، وكان عامة المسلمين يحضرون من أجل الأخذ من هذه الذبائح[٣] على العكس من فترات الضعف والانهيار أبان فترات سيطرة الوزراء وضعف السلاطين وقيام الحروب والثورات والصراعات على الحكم، نجد من الناس من شتم أحد الشرفاء ولم يكن يعرفه أنه من الأشراف، وعندما قيل له أنه شريف،زاد الرجل شتم الشريف بآبائه وأجداده[٤]، حيث أفتى الفقهاء بوجوب احترام الأشراف وعدم التعرض لهم لأنتسابهم الى النبي وآل بيته الشريف حيث فرضت

(١) ابن دينار: المصدر السابق، ص١٧٩، برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٠.

(٢) ابن الشماع: المصدر السابق، ص١٢٩.

(٣) البرزلي: فتاوى، جـ٦، ص٤٢٦، الأنصاري: فهرست الرصاع، ص٢٤،

(٤) الونشريسى: المعيار، جـ٢، ص٣٧٠-٣٧١.

عقوبات على من يتعرض لهم أو يفتري عليهم[١] وتضرر الأشراف في حالة ضعف الدولة لأنها لم تنفق عليهم وتقل عطاءات السلاطين والوزراء المستبدين[٢] وقلة هيبة الأشراف مع مراحل الانحطاط والانهيار الحفصي[٣] فظهر كثير من يدعي أنه من الأشراف[٤].

ومع انهيار وتدهور وضعية الأشراف ضعفت وقلت الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، حيث اهمل الوزراء المستبدون والسلاطين الضعفاء الاحتفال به بسبب النفقات الكثيرة والباهظة التي تنفق في هذه الاحتفالات بسبب قلة المجابي وتدهور أحوال البلاد الاقتصادية وبالتالي تأثر الفقراء والمساكين بقلة الاحتفالات كما كانوا يحصلون عليه من مأكل وشراب وثياب[٥]

واحتفل الوزراء الحفصيون مع سلاطينهم بجميع الأعياد الموجودة المواسم والشهر الكريمة في المجتمع الحفصي، كما كانوا يعظمون شهر رمضان المبارك، فيقومون بتلاوة القرآن الكريم وختمه وكذلك الجلوس في المساجد

(١) الونشريسي: المعيار، جـ٦، ص٣٤٦، كمال ابو مصطفى: حوانب من حياة المغرب، ص٣٥.

(٢) محمد القيلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص١٠٦، محمد اسماعيل: المرجع السابق ص٣٣٩

(٣) الونشريسي: المعيار، جـ١٢، ص٢٢٧-٢٣٠، محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع، ص٦١٥.

(٤) الونشريسي: المعيار جـ٢، ص٢٢٧-٣٢٠.

(٥) رشا سالم: المرجع السابق، ص٣٤٥، محمد اسماعيل:المرجع السابق، ص٣٤.

والجوامع في معظم ليالي الشهر المبارك[١] كما احتفلوا بيوم عاشوراء، فيقوم أصحاب الداكين بتزيين دكاكينهم، وبكثرة الطرب، ويلعب الأطفال، ويقوم الأهالي بالذبح يوم التاسع من شهر المحرم، وحرص السلاطين العظماء ووزراؤهم على إخراج الأموال والصدقات والكسوة للفقراء والمساكين وتوزيع عليهم ملابس جديدة[٢] وكانت تغلق الأسواق وتقف حركة البيع والشراء ايام الاحتفالات بالمناسبات المختلفة[٣] وكانوا يحتفلون ايضا بيوم النصف من شعبان حيث جرت العادة أن يشتري الآباء النقير لأبنائهم للعب والنفخ فيه فيكثر الصخب والضجيج في جميع الأحياء دلالة على البهجة والسرور[٤] وكان السلاطين العظماء والوزراء المخلصون لهم يشاركون العلماء والفقهاء العبادة والخشوع وصيام هذا اليوم الطيب[٥] وفي الأعياد يخرج السلاطين والوزراء وكذلك جميع فئات البلاد الحفصية بالثياب الجديدة الجميلة ويصلون بالجوامع[٦].

وخلاصة القول:

نجد أن الوزراء الحفصيين قد لعبوا دورًا هامًا في المجتمع الحفصي فشاركوا في الأحباس على المساجد والمدارس والزوايا، وكانت علاقاتهم الاجتماعية مع

(١) احمد عامر: الدولة الحفصية، ص٧٨.

(٢) مجهول: الاستبصار، ص١٥٤.

(٣) التجاني: الرحلة، ص١٥٤ ؛ منى سيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص٢٥٧.

(٤) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص١٣١، ابراهيم القادري: المغرب والأنلس، ص٩١.

(٥) إبراهيم القادرى: المرجع السابق، ص٩١ هامش

(٦) التجاني: الرحلة، ص١٥٤، مني سيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص٢٥٧.

العامة تختلف حسب قوة وضعف السلطان فأبان فترات القوة وسيطرة السلطان على مقاليد الحكم وتحليه بالعدل والحكمة نجد أن وزراؤه تستقيم علاقتهم مع العامة ولكن في فترات الضعف وسيطرة الوزراء على الحكم أساءوا إلى العامة وتحكموا فيها وزادوا فقرهم فقرًا وكذلك انتشرت الآفات الاجتماعية التي نخرت في جسد الدولة الحفصية أثناء أطوار الضعف وساعدت القضاء عليها وزوالها كما كان للوزراء دورهم الفعال في ازدهار الصوفية في أفريقية الحفصية سواء فترات الضعف أو القوة حيث نجد أن كل من السلطان الوزير سعى إلى التقرب إليهم. وكان للآفات الاجتماعية التي انتشرت في فترات الضعف دورها في القضاء على بعض العادات الحفصية مثل الاحتفالات المختلفة.

obeikandl.com